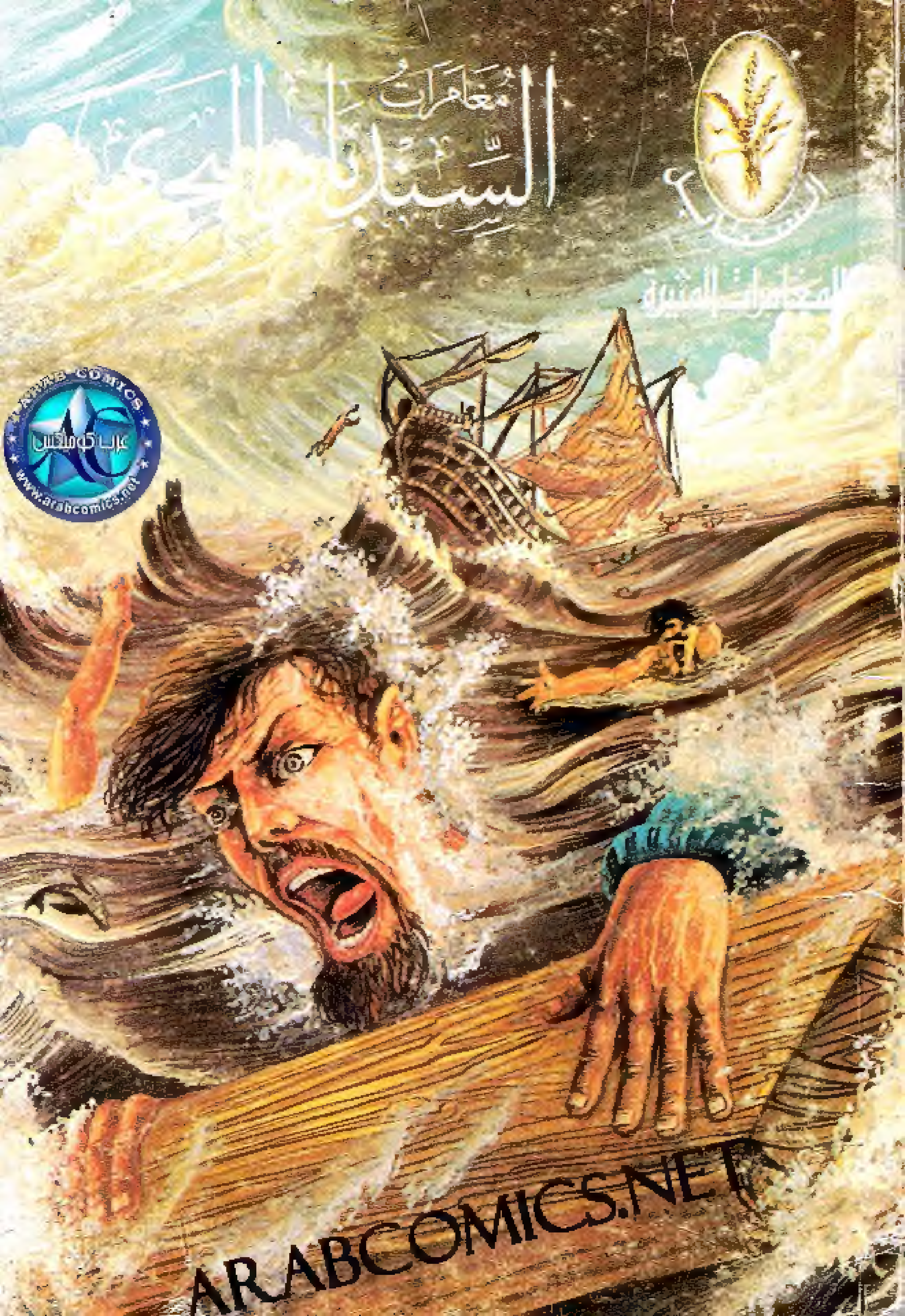

مغامرات
السندباد البحري
المغامرات المثيرة



مُغامَرات السِّنْدبادِ البَحْري



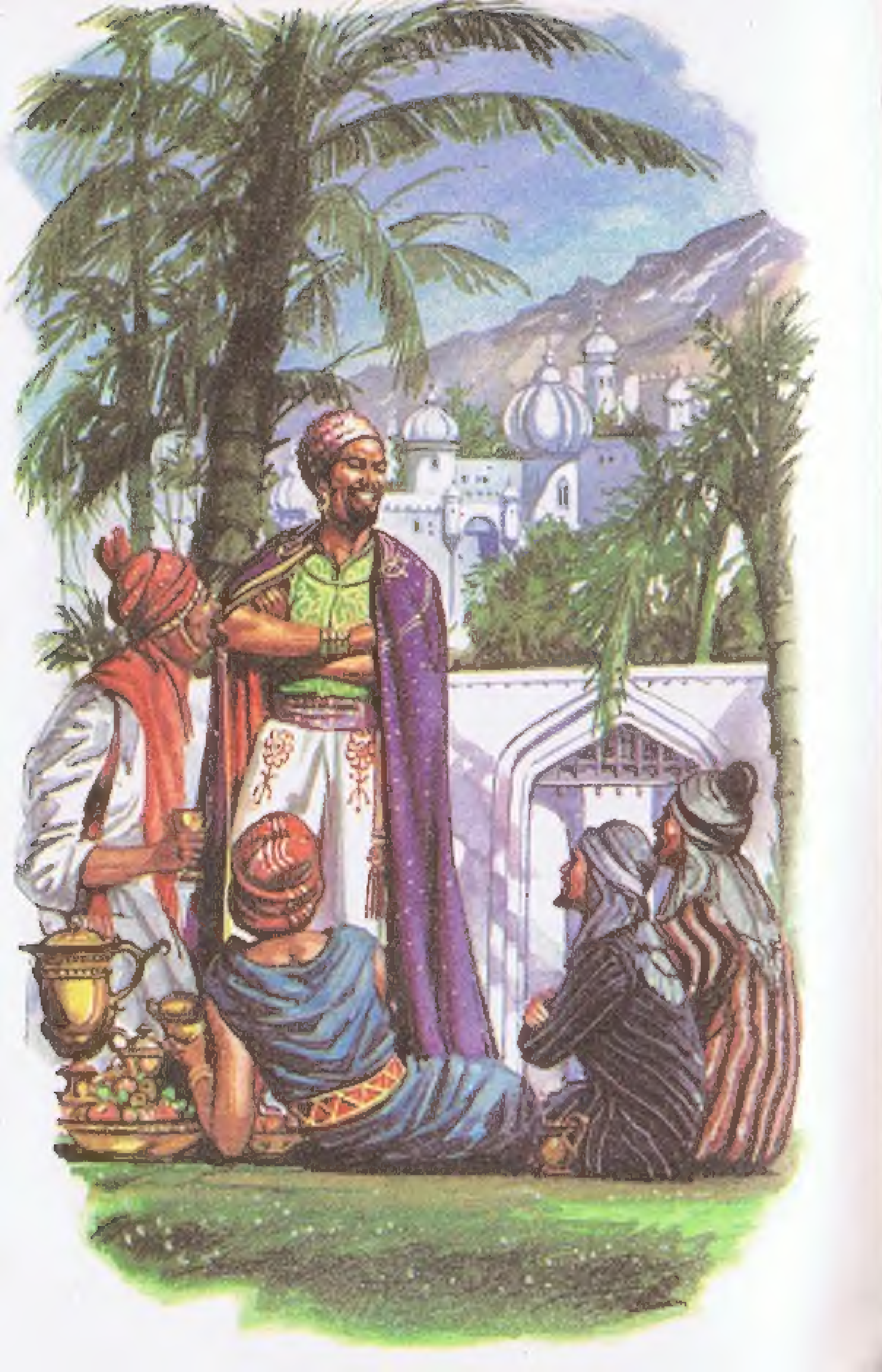
إعـداد : حامِد علي عطاري
رُسُوم : دُوغلاس پوسْت
غلاف : حسَن عبد السّتار

مَكتبة لبنان
بيروت

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٤ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٥٢-٩

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة



الرِّحْلَةُ الأولى

عاشَ ٱلسِّنْدِبادُ ٱلْبَحْرِيُّ بِمَدينَةِ بَغْداذَ ، في عَهْدِ ٱلْخَليفَةِ هارونَ ٱلرَّشيدِ . وَكانَ واسِعَ ٱلثَّراءِ ، يُقيمُ في بَيْتٍ فَخْمٍ في أَرْقى حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ ٱلعاصِمَةِ . وَكانَتْ تُحيطُ بِبَيْتِهِ حَديقَةٌ رَحْبَةٌ غَنّاءُ ، أَشْجارُها باسِقَةٌ ، وَرَياحينُها فائِحَةٌ . وَكَثيرًا ما كانَ يَجْلِسُ هوَ وَأَصْدِقاؤُهُ في ظِلالِ أَشْجارِ تِلْكَ ٱلْحَديقَةِ كُلَّما اشْتَدَّتْ حَرارَةُ ٱلْجَوِّ . وَها نَحْنُ نورِدُ قِصَّةَ ٱلْمُغامَراتِ بِلِسانِ صاحِبِها ، يَرْويها لِأَصْدِقائِهِ . لِنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ :

« إِنّي ثَرِيٌّ ٱلآنَ ، وَلٰكِنّي لَمْ أَكُنْ كَذٰلِكَ دائِمًا ؛ بَلْ جاءَ عَلَيَّ وَقْتٌ كُنْتُ فيهِ فَقيرًا جِدًّا ، لا أَعْرِفُ لِلسَّعادَةِ مَعْنًى . وَفي رِحْلَتي ٱلأُولى صادَفْتُ ٱلأَهْوالَ ، وَاحْتَمَلْتُ ٱلْمَشَقّاتِ ، وَانْتابَتْني ٱلْمَخاوِفُ . وَإِلَيْكُمْ قِصَّةَ ٱلرِّحْلَةِ ٱلأُولى . »

كُنْتُ آنَذاكَ شابًّا طائِشًا ، شَأْنَ أَمْثالي مِنَ ٱلشَّبابِ ٱلَّذينَ يُبَدِّدونَ ٱلْمالَ وَٱلْوَقْتَ هَباءً . وَلَمّا ساءَتْ بِيَ ٱلأَحْوالُ ، أَقْنَعْتُ نَفْسي بِضَرورَةِ ٱلْعَمَلِ لِلْحُصولِ عَلى ٱلْمالِ . وَلِتَحْقيقِ ذٰلِكَ بِعْتُ بَيْتي وَما أَمْلِكُ لِقاءَ ثَلاثَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، اشْتَرَيْتُ بِها أَنْفَسَ ٱلْمَلْبوساتِ وَأَغْلى ٱلْبَضائِعِ ، وَحَمَلْتُها إِلى ٱلْبَصْرَةِ . وَفي ٱلْبَصْرَةِ ٱلْتَقَيْتُ رُبّانَ سَفينَةٍ ، وَتَبادَلْتُ وَإِيّاهُ ٱلْحَديثَ .

وَمِمّا قالَهُ لي : « سَتُقْلِعُ ٱلسَّفينَةُ ٱلأُسْبوعَ ٱلقادِمَ ، وَعَلَيْها سِتَّةٌ مِنَ ٱلتُّجّارِ وَبَضائِعُهُمْ . وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى بِلادِ ٱلشَّرْقِ ٱلأَقْصى وَجُزُرِهِ ، حَيْثُ يَبيعُ ٱلتُّجّارُ بِضاعَتَهُمْ ، وَيَبْتاعونَ ٱلجَواهِرَ وَنَفائِسَ ٱلشَّرْقِ لِيَبيعوها في بِلادِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ رِحْلَتِهِمْ . »

لَمّا انْتَهى ٱلرُّبّانُ مِنْ كَلامِهِ ، سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذَ عَلى سَفينَتِكَ تاجِرًا آخَرَ ؟ لَيْسَ لَدَيَّ إلّا بِضْعَةُ صَناديقَ ، وَسَأَدْفَعُ لَكَ نَصيبَكَ مِمّا سَأَنالُهُ مِنْ أَرْباحٍ . » فَوافَقَ ٱلرُّبّانُ عَلى ذٰلِكَ .

في ٱلأُسْبوعِ ٱلتّالي ، أَبْحَرَتِ ٱلسَّفينَةُ في شَطِّ ٱلعَرَبِ ، ثُمَّ عَبَرَتِ ٱلخَليجَ ٱلعَرَبِيَّ إلى ٱلمُحيطِ ٱلهِنْدِيِّ . وَطالَ سَيْرُنا في ٱلبَحْرِ أَيّامًا بِلَياليها . وَكُنّا نَتَوَقَّفُ في بَعْضِ ٱلمَوانِئِ وَٱلجُزُرِ فَنُقايِضُ عَلى بَضائِعِنا . وَذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتِ ٱلسَّفينَةُ عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ غَنّاءَ . وَكانَ ٱلرُّبّانُ يَأْمُلُ أَنْ يَحْصُلَ عَلى ٱلماءِ ٱلعَذْبِ مِنْها ، وَلِهٰذا أَرْسى سَفينَتَهُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ اليابِسَةِ . وَقَصَدَ ٱلكَثيرونَ مِنّا ٱلشّاطِئَ بَحْثًا عَنِ ٱلماءِ ٱلعَذْبِ ، وَرَغْبَةً في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرَةِ . وَقَدْ حَمَلَ ٱلبَحّارَةُ قُدورَ ٱلماءِ ٱلكَبيرَةَ لِمَلْئِها ، عَلى حينَ أَخَذْتُ أَجولُ في ٱلجَزيرَةِ وَأَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِها . وَقَدْ حَلا لِبَعْضِ ٱلبَحّارَةِ وَٱلتُّجّارِ أَنْ يَجْمَعوا ٱلحَطَبَ وَيُشْعِلوا نارًا .

الجَزيرةُ تَتَحَرَّكُ

حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئانِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، أَوَّلُهُما : تَحَرُّكُ ٱلجَزيرَةِ مِنْ تَحْتِنا ، وَثانيهِما : صُراخُ ٱلرُّبّانِ يَدْعونا لِلنَّجاةِ بِأَنْفُسِنا وَٱلعَوْدَةِ إلى ٱلسَّفينَةِ . صاحَ : « إنَّ ٱلأَرْضَ ٱلَّتي تَقِفونَ عَلَيْها لَيْسَتْ جَزيرَةً ، وَإِنَّما هِيَ حوتٌ عَظيمٌ يَنامُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلماءِ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَنَمَتْ عَلَيْهِ ٱلنَّباتاتُ ، لٰكِنَّ نارَكُمْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ . الهَرَبَ ! ٱلهَرَبَ ! قَبْلَ أَنْ يَغوصَ بِكُمُ ٱلحوتُ في أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . »



فَلَمّا سَمِعْنا ما قالَهُ ٱلرُّبّانُ ، أَسْرَعْنا طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَلٰكِنَّني كُنْتُ عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ ٱللَّحاقَ بِالسَّفينَةِ قَبْلَ إقْلاعِها . وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ ، حَتّى أَخَذَتِ ٱلجَزيرَةُ تَغوصُ في ٱلأَعْماقِ . ثُمَّ هَبَّتْ رِياحٌ عاتِيَةٌ عَصَفَتْ

بِالسَّفِينَةِ بَعيدًا ، وَوَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ الأَمْواجِ ، أَصْعَدُ إِلى سَطْحِ الْماءِ ، وَأَغوصُ ثانِيَةً . وَاخْتَفَتِ السَّفينَةُ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَانْقَطَعَ بِذٰلِكَ آخِرُ خَيْطٍ مِنَ الأَمَلِ ؛ بَلْ تَوَقَّعْتُ المَوْتَ في ذٰلِكَ البَحْرِ المُتَلاطِمِ الأَمْواجِ .

قِدْرُ الماءِ

لٰكِنَّ العِنايَةَ الرَّبّانِيَّةَ الَّتي لا تَغْفُلُ وَلا تَنامُ ، ساقَتْ إِلَيَّ قِدْرًا فارِغَةً ، فاحْتَضَنْتُها بِذِراعَيَّ ، وَنَجَوْتُ مِنَ الغَرَقِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اليَسيرِ عَلَيَّ أَنْ أَبْقى مُحْتَضِنًا القِدْرَ ، عَلى حينِ تَلْعَبُ بِيَ الأَمْواجُ كَيْفَ شاءَتْ ، تَقْذِفُ بي هُنا ، ثُمَّ تَعودُ فَتَقْذِفُ بي هُناكَ ، وَأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ. وَبَقيتُ عَلى هٰذِهِ الحالِ اللَّيْلَ بِطولِهِ وَنَهارَ اليَوْمِ التّالي وَلَيْلَتَهُ . وَما إِنْ طَلَعَ الصَّباحُ ، حَتّى تَطَلَّعْتُ حَوْلي وَقُلْتُ : « الوَداعَ يا دُنْيا ! إِنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ في حَياتي . فَأَنا مَريضٌ تَصَلَّبَتْ أَصابِعي مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ ، وَتَكادُ ذِراعَيَّ أَنْ تَتَصَلَّبا أَيْضًا ، وَلَنْ يَطولَ تَشَبُّثي بِالقِدْرِ ، وَبَعْدَها سَأَهْبِطُ إِلى قاعِ البَحْرِ إِلى الأَبَدِ . »

اليابِسَةُ

وَسْطَ هٰذا اليَأْسِ لاحَ الفَرَجُ ؛ إِذْ رَأَيْتُ اليابِسَةَ . وَهَبَّتِ الرّيحُ وَدَفَعَتْني وَقِدْرَ الماءِ إِلى الشّاطِئِ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ . أَمّا ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَلا أَدْري . وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنّي أَصْبَحْتُ عاجِزًا عَنِ الحَرَكَةِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ . كُنْتُ خائِرَ القُوى مِنَ الجوعِ وَالعَطَشِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ النُّهوضَ عَلى قَدَمَيَّ . نَظَرْتُ إِلى قَدَمَيَّ فَلاحَظْتُ آثارَ نَهْشِ السَّمَكِ في لَحْمي ظاهِرَةً لِلْعِيانِ ، فَقُلْتُ

لِنَفْسي : « لا تَبْتَئِسْ يا سِنْدِبادُ ! سَتُشْفى قَدَماكَ . إِنَّ غَسْلَهُما بِالماءِ النَّظيفِ العَذْبِ ضَرورِيٌّ ، لِذا يَجِبُ البَحْثُ عَنْهُ . »

أَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلى الأَرْضِ مُسْتَعينًا بِذِراعَيَّ حَتّى بَلَغْتُ شَجَرَةَ فاكِهَةٍ عَلى ضِفَّةِ نُهَيْرٍ . وَبَقيتُ تَحْتَها أَيّامًا أَقْتاتُ ثِمارَها وَأَشْرَبُ مِنْ مِياهِ النُّهَيْرِ ، إِلى أَنْ تَحَسَّنَتْ حالُ قَدَمَيَّ ، وَاسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قُوايَ . وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ قَدْ آنَ الأَوانُ لِمُغادَرَةِ المَكانِ ، فَتَزَوَّدْتُ بِبَعْضِ الفاكِهَةِ دونَ الماءِ لِعَدَمِ قُدْرَتي عَلى حَمْلِهِ ، عَلى أَمَلِ العُثورِ عَلى أَنْهارٍ أُخْرى في طَريقي . وَلٰكِنْ خابَتْ ظُنوني وَانْهارَتْ آمالي ، إِذْ لَمْ أُصادِفْ في طَريقي ماءً لِلشُّرْبِ أَوْ أَشْجارَ فاكِهَةٍ .

سِرْتُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ دونَ أَنْ تَلْمَحَ عَيْنايَ ما يَدُلُّ عَلى وُجودِ بَشَرٍ إِطْلاقًا . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ أَمْشي عَلى غَيْرِ هُدًى ، وَأَعيشُ عَلى بَقِيَّةٍ مِنَ الأَمَلِ ، بَدَأَ الخَوْفُ يَدِبُّ في أَوْصالي ، وَيَمْلِكُ عَلَيَّ مَشاعِري ، فَرُحْتُ أُخاطِبُ نَفْسي : « يا تُرى ، هَلْ أَنا الوَحيدُ في هٰذِهِ الجَزيرَةِ ؟ أَما مِنْ حَيَوانٍ أَوْ طَيْرٍ أَوْ إِنْسانٍ هُنا ؟ ما الَّذي أَراهُ هُناكَ ؟ »

الحِصانُ

أَخَذْتُ أُنْعِمُ النَّظَرَ فيما لاحَ لي مِنْ بَعيدٍ ، وَإِذا بِهِ حِصانٌ . رُدَّتْ روحي إِلَيَّ ، وَعاوَدَني الأَمَلُ في الحَياةِ ، فَأَسْرَعْتُ الخُطى صَوْبَ الحِصانِ . وَكانَ ، وَالحَقُّ يُقالُ ، في غايَةِ الجَمالِ وَالرَّشاقَةِ . فَقُلْتُ في نَفْسي : « إِنَّ حِصانًا كَهٰذا لا بُدَّ أَنْ يَكونَ لِمَلِكٍ أَوْ لِرَجُلٍ ثَرِيٍّ . »

وَما إِنِ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كَهْفٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ رَجُلٌ أَخَذَ يَجْري بِسُرْعَةٍ ، مُشْهِرًا سَيْفَهُ ، ثُمَّ صَرَخَ فِيَّ قائِلًا : « كُلُّ مَنْ يَمَسُّ حِصانَ ٱلمَلِكِ ٱلمَوْتُ مَصيرُهُ . »

قُلْتُ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « لا تَقْتُلْني أَيُّها ٱلرَّجُلُ ! ما كُنْتُ أَقْصِدُ إِلّا رُؤْيَةَ هٰذا ٱلحِصانِ ٱلجَميلِ ، فَهَلْ هُوَ لَكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيَّ ٱلرَّجُلُ مُتَسائِلًا : « قُلْ لِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَما ٱلَّذي جاءَ بِكَ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ ٱلغَرَقِ بِوَساطَةِ قِدْرِ ماءٍ . » وَرَوَيْتُ لَهُ حِكايَتي مِنْ أَوَّلِها إِلى آخِرِها .

وَما إِنْ سَمِعَ حِكايَتِي ٱلمُؤْلِمَةَ ، حَتَّى أَخَذَني مِنْ يَدي ، وَسارَ بي إِلى ٱلكَهْفِ ، وَقَدَّمَ لِيَ ٱلطَّعامَ وَٱلماءَ . وَأَخَذَ يُسَرِّي عَنّي هُمومِيَ قائِلًا : « حَقًّا إِنَّ ٱلعِنايَةَ ٱلإِلٰهِيَّةَ شَمِلَتْكَ ، فَكَتَبَتْ لَكَ ٱلحَياةَ . إِنّي وَزُمَلائي مِنْ خُدّامِ ٱلمَلِكِ نَأْتي في كُلِّ عامٍ مَرَّةً إِلى هٰذا ٱلمَكانِ مِنَ ٱلجَزيرَةِ ، وَنَقْضي فيهِ أُسْبوعًا وَمَعَنا أَحْسَنُ جِيادِ ٱلمَلِكِ . فَهَواءُ ٱلجَزيرَةِ عَليلٌ يُنْعِشُ ٱلجِيادَ وَيُكْسِبُها ٱلصِّحَّةَ وَٱلعافِيَةَ . وَلٰكِنَّ ٱلجَزيرَةَ تَفْتَقِرُ إِلى ٱلطَّعامِ وَٱلماءِ لِبُعْدِها عَنِ ٱلأَماكِنِ ٱلمَأْهولَةِ بِٱلسُّكّانِ ، وَلِتَعَذُّرِ ٱلوُصولِ إِلَيْها دونَ دَليلٍ . وَلِهٰذا سَنَصْطَحِبُكَ مَعَنا غَدًا في طَريقِ عَوْدَتِنا . »

ٱلمَلِكُ ٱلمِهْرَجانُ

لَمْ يَمُرَّ مِنَ ٱلوَقْتِ إِلّا قَليلُهُ ، حَتّى حَضَرَ زُمَلاؤُهُ فَوْقَ جِيادِ ٱلمَلِكِ ٱلرَّشيقَةِ ، وَرافَقْتُهُمْ في عَوْدَتِهِمْ . وَفي ٱلطَّريقِ حَدَّثوني كَثيرًا عَنْ مَلِكِهِمْ ، وَمِمّا قالوهُ : « إِنَّ ٱلمَلِكَ ٱلمِهْرَجانَ أَعْظَمُ مَلِكٍ في ٱلبِلادِ ، وَٱلشَّعْبُ يُوليهِ صادِقَ وَلائِهِ وَعَظيمَ حُبِّهِ ، لِما يَعْرِفُ عَنْهُ مِنْ كَرَمِ ٱلخُلُقِ ، وَطيبِ ٱلسَّريرَةِ ، وَإِعْطاءِ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ وَلِأَنَّهُ لا يَخافُ فِي ٱلحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ . وَيَقْصِدُ مَدينَتَنا ٱلعَظيمَةَ تُجّارٌ مِنْ مُخْتَلِفِ بِقاعِ ٱلأَرْضِ ، فَيَلْقَوْنَ كُلَّ رِعايَةٍ وَحُسْنَ مُعامَلَةٍ . »

وَبِمُجَرَّدِ وُصولِنا إِلى ٱلمَدينَةِ ، أَسْرَعوا إِلى ٱلمَلِكِ ، وَأَنْبَأوهُ بِشَأْني . فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنِ ٱسْتَدْعاني ، وَٱسْتَمَعَ إِلى تَفاصيلِ قِصَّتي بِكُلِّ ٱهْتِمامٍ . ثُمَّ عَقَّبَ عَلى كَلامي بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ كانَ ٱلحَظُّ حَليفَكَ . »

وَأَمَرَ خَدَمَهُ بِتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ شَمِلَني بِرِعايَتِهِ . وَكانَ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلآخَرِ يَسْتَدْعيني إِلى ديوانِهِ ، وَكُنْتُ أُجيدُ ٱلحَديثَ بِعَدَدٍ مِنَ ٱللُّغاتِ ، فَٱسْتَعانَ بِيَ ٱلمَلِكُ فِي ٱلاهْتِمامِ بِشُؤونِ ٱلتُّجّارِ وَٱلبَحّارَةِ ٱلَّذينَ كانوا يَزورونَ مَمْلَكَتَهُ ، ثُمَّ إِخْطارِهِ بِما يَحْمِلونَ مِنْ بَضائِعَ أَوْ بِما يَشْتَرونَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ . وَقَدْ دَأَبْتُ عَلى سُؤالِ رَبابِنَةِ ٱلسُّفُنِ عَنْ رِحْلاتِهِمْ ، وَعَمّا إِذا كانوا يَعْرِفونَ بَغْدادَ .

رُبّانُ ٱلسَّفينةِ

ذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتْ في ٱلميناءِ سَفينةٌ كَبيرةٌ ، وَبَدَأَ ٱلتُّجّارُ ٱلقادِمونَ عَلَيْها في إنْزالِ بَضائِعِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَبيعُونَ وَيَشْتَرونَ وَيُقايِضونَ . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ ٱلرُّبّانِ وَسَأَلْتُهُ : « أَمَا مِنْ بَضائِعَ أُخْرى في ٱلسَّفينةِ ؟ »

كانَ جَوابُهُ : « في ٱلسَّفينةِ بِضْعَةُ صَناديقَ لِتاجِرٍ شابٍّ بَدَأَ رِحْلَتَهُ مَعَنا ، وَلٰكِنَّهُ ماتَ غَرَقًا . وَسَأَقومُ بِبَيْعِ بِضاعَتِهِ وَتَسْليمِ ثَمَنِها إلى أَهْلِهِ في بَغْدادَ ٱلعَظيمةِ .

تَفَرَّسْتُ في وَجْهِهِ ، فَعَرَفْتُهُ . وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرَ لِيَ ٱسْمَهُ ؟ »

أَجابَني : « إنَّ ٱسْمَهُ ٱلسِّنْدِبادُ . »

وَما إنْ سَمِعْتُ ٱسْمِيَ حَتّى كادَ أَنْ يُغْشى عَلَيَّ ، فَصَرَخْتُ بِأَعْلى صَوْتي : « أَيُّها ٱلرُّبّانُ ! أَنا ٱلسِّنْدِبادُ ، وَهٰذِهِ بِضاعَتي ، وَإنّي لَأَشْكُرُكَ عَلى ٱحْتِفاظِكَ بِها ! »

وَلَمْ يَسَعِ ٱلرُّبّانُ إلّا أَنْ يَسْتَنْكِرَ قَوْلِيَ وَيَصيحَ : « كَيْفَ لي أَنْ أُصَدِّقَكَ ؟ صَحيحٌ أَنَّ وَجْهَكَ يَنِمُّ عَنِ ٱلطِّيبةِ وَٱلصَّلاحِ ، وَلٰكِنَّكَ تَدَّعي أَنَّكَ ٱلسِّنْدِبادُ لِتَسْتَوْلِيَ عَلى ٱلبَضائِعِ دونَ وَجْهِ حَقٍّ . لَقَدْ رَأَيْتُ ٱلسِّنْدِبادَ بِعَيْنَيَّ وَٱلماءُ يَبْتَلِعُهُ ، كَما رَآهُ ٱلبَحّارةُ وَٱلتُّجّارُ عَلى ظَهْرِ ٱلسَّفينةِ ، عِنْدَما كانَ ٱلمَوْتُ يَطْويهِ بَيْنَ أَمْواجِ ٱلبَحْرِ . كَفاكَ ٱدِّعاءً ، فَأَنْتَ لَسْتَ ٱلسِّنْدِبادَ . »

وَلَمّا زادَتْ حِدَّةُ ٱلمَوْقِفِ بَيْنَنا ، قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها ٱلرُّبّانُ ! أَرْجو أَنْ

تَسْتَمِعَ إلَيَّ ، وَتُنْصِتَ إلى حِكايَتي ، وَأَتْرُكُ لَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرَ تَصْديقي أَوْ تَكْذيبي . »

وَأَخَذْتُ أَحْكي لَهُ حِكايَتي مُنْذُ أَنْ قابَلْتُهُ في ٱلبَصْرةِ ، وَذَكَّرْتُهُ بِأَشْياءَ خاصَّةٍ جَرَتْ بَيْنَنا تَقومُ دَليلًا عَلى صِدْقِ قَوْلي . حينَذاكَ ٱقْتَنَعَ ٱلرُّبّانُ بِما قُلْتُهُ ، وَأَظْهَرَ ٱلتُّجّارُ فَرْحَتَهُمْ بِنَجاتي وَهَنَّأوني بِٱلسَّلامةِ .

هَدِيَّةُ ٱلمَلِكِ

قامَ ٱلرُّبّانُ بِتَسْليمي بَضائِعي فَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِها أَغْلاها لِتَكونَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ ، وَحَمَلَها ٱلبَحّارةُ وَوَضَعُوها بَيْنَ يَدَيْهِ . وَما إنْ رَآها حَتّى قالَ لي : « ما هٰذا ٱلَّذي أَراهُ ؟ لَقَدْ جِئْتَنا خالِيَ ٱلوِفاضِ ، وَلٰكِنّي أَراكَ ٱلآنَ تُقَدِّمُ لي هَدِيَّةً ثَمينةً ، فَكَيْفَ حَدَثَ هٰذا ؟ »

أَعَدْتُ عَلى مَسامِعِ ٱلمَلِكِ قِصَّةَ ٱلسَّفينةِ وَما جَرى لي . وَلَمْ يَسَعِ ٱلمَلِكُ إلّا أَنْ يُقَدِّمَ لي هَدِيَّةً أَثْمَنَ مِنْ هَدِيَّتي لَهُ .

العَوْدَةُ إلى بَغْدادَ

عِنْدَما شَرَعَتِ ٱلسَّفينةُ تَأْخُذُ أُهْبَتَها لِلْإبْحارِ ، ذَهَبْتُ إلى ٱلمَلِكِ وَقُلْتُ لَهُ : « يُحْزِنُني يامَوْلايَ أَنْ أُغادِرَ بَلَدَكَ ٱلجَميلَ ، وَأُحْرَمَ مِنْ رُؤْيةِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، عَطَفَ عَلَيَّ ، وَشَمِلَني بِرِعايَتِهِ ؛ فَأَنا يامَوْلايَ أَحِنُّ إلى مَدينَتي وَمَسْقَطِ رَأْسي ، بَغْدادَ ٱلعَظيمةِ . »

وافَقَ ٱلمَلِكُ عَلى رَحيلي قائِلًا : « لَقَدْ صَدَقْتَ فيما قُلْتَ ، وَٱلواجِبُ

يَدْعُوكَ إلى ٱلعَوْدةِ إلى بَلَدِكَ . لَقَدْ كُنْتَ بَيْنَنا نِعْمَ ٱلصَّديقُ ٱلَّذي نَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ ، فَقَدْ قَدَّمْتَ إلى بَلَدي أَجَلَّ ٱلخِدْماتِ وَأَصْدَقَها . رافَقَتْكَ ٱلسَّلامَةُ ، وَلَكَ شُكْري وَتَقْديري . »

ثُمَّ أَمَرَ خَدَمَهُ أَنْ يَحْمِلوا لِيَ ٱلهَدايا ٱلثَّمينَةَ مِنْ ذَهَبٍ وَجَواهِرَ وَمَلابِسَ فاخِرَةٍ وَغَيْرِها مِمَّا لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ . وَبَعْدَ رِحْلَةٍ طَويلَةٍ رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ في ميناءِ ٱلبَصْرَةِ ، وَمِنْها سافَرْتُ بَرًّا إلى بَغْدادَ . وَقَدْ فَرِحَ أَصْدِقائي بِعَوْدَتي ، وَاشْتَرَيْتُ لِنَفْسي بَيْتًا فَخْمًا ، عِشْتُ فيهِ عِدَّةَ سَنَواتٍ في جَوٍّ مِنَ ٱلسَّعادَةِ وَٱلرَّفاهِيَةِ . وَغَدًا إنْ شاءَ اللهُ سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلثّانِيَةِ .

الرِّحْلَةُ ٱلثّانِيَةُ

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي ٱلأُولى ، قَرَّرْتُ أَنْ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمْري في بَغْدادَ . فَقَدْ رَزَقَني اللهُ ٱلخَيْرَ ٱلوَفيرَ ، وَكُلَّ أَسْبابِ ٱلسَّعادَةِ : فَٱلبَيْتُ فَخْمٌ ، وَٱلأَصْدِقاءُ كَثيرونَ ، وَمُتَطَلَّباتُ حَياةِ ٱلرَّفاهِيَةِ مُتَوَفِّرَةٌ . وَلٰكِنْ وَسْوَسَتْ لي نَفْسي أَنْ أُغامِرَ ثانِيَةً لِأَرى ما لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ بِلادٍ وَجُزُرٍ وَغَيْرِها . وَعاوَدَني ٱلحَنينُ إلى ٱلتِّجارَةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِراءٍ وَمُقايَضَةٍ .

وَلَمّا عَزَمْتُ عَلى ٱلخُروجِ في تِجارَةٍ ، مَلَأْتُ ٱلصَّناديقَ بِما خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، مِمّا تَزْخَرُ بِهِ أَسْواقُ بَغْدادَ . وَحَمَلْتُها إلى ٱلبَصْرَةِ ؛ حَيْثُ رَكِبْتُ سَفينَةً تَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ ٱلتُّجّارِ .

أَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ في رِحْلَةٍ جَميلَةٍ ، وَكُنّا نَتَنَقَّلُ بِها مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ إلى جَزيرَةٍ ، بِحَيْثُ كانَتْ وُجْهَةُ سَيْرِنا ٱلجَنوبَ وَٱلشَّرْقَ . وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، رَسَتِ ٱلسَّفينَةُ عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ غَنِيَّةٍ بِأَشْجارِها ٱلدّائِمَةِ ٱلخُضْرَةِ ، وَبِأَثْمارِها ٱليانِعَةِ ، وَبِأَزْهارِها ٱلفَوّاحَةِ ، وَبِأَنْهارِها ذاتِ ٱلمِياهِ ٱلعَذْبَةِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَرَ بِها بَشَرًا .

نَزَلَ بَعْضُ ٱلبَحّارَةِ لِيَمْلَؤوا ٱلأَواني بِٱلمِياهِ ٱلعَذْبَةِ ، عَلى حينِ رافَقْتُ بَعْضَ ٱلتُّجّارِ في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرَةِ ، وَشاهَدْنا ٱلأَزْهارَ ٱلرّائِعَةَ ٱلجَمالِ . وَقَدْ

وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلى زَهْرَةٍ كَبيرَةٍ وَجَميلَةٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْها وَشَمَمْتُها ، فَرُحْتُ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَلَمّا أَفَقْتُ مِنْ نَوْمي ، وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا ، وَلا أَثَرَ لِلْبَحّارَةِ أَوِ ٱلتُّجّارِ عَلى ٱلْجَزيرَةِ . وَلَمْ أَشْعُرْ إِلّا وَقَدْ أَخَذْتُ أَصْرُخُ : « يالَلْحَماقَةِ ٱلَّتي ٱرْتَكَبْتُها ! لِمَ ٱبْتَعَدْتُ عَنْ بَلَدِيَ ٱلْحَبيبِ ؟ هٰأَنَذا أَصْبَحْتُ وَحيدًا ، وَفي مَكانٍ مُقْفِرٍ غَيْرِ عامِرٍ بِٱلسُّكّانِ . وَمِنَ ٱلْغَباءِ أَنْ أَصْرُخَ في مِثْلِ هٰذا ٱلْمَكانِ . »

الــرُّخُّ

وَبِكُلِّ مَشَقَّةٍ تَسَلَّقْتُ إِلى أَعْلى شَجَرَةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ حَوْلي . فَرَأَيْتُ سَفينَتَنا مُبْحِرَةً بَعيدًا ، وَلَمْ أَرَ في ٱلْجَزيرَةِ إِلّا ٱلْأَشْجارَ ، وَلا شَيْءَ غَيْرَ ٱلْأَشْجارِ . وَلَمّا أَطَلْتُ ٱلنَّظَرَ ، رَأَيْتُ عَنْ بُعْدٍ شَيْئًا كَبيرًا ، لَوْنُهُ أَبْيَضُ ، وَيُشْبِهُ قُبَّةً هائِلَةً فَوْقَ بَيْتٍ .

سِرْتُ نَحْوَ هٰذا ٱلشَّيْءِ عِدَّةَ ساعاتٍ حَتّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ ٱلْغُروبِ . وَوَجَدْتُهُ يُشْبِهُ بَيْضَةً ضَخْمَةً جِدًّا . وَفي بِدايَةِ ٱلْأَمْرِ ، ظَنَنْتُها قُبَّةً ، وَلٰكِنْ ، ساءَلْتُ نَفْسي : « إِنْ كانَتْ قُبَّةً ، فَأَيْنَ ٱلْبَيْتُ ٱلَّذي أُقيمَتْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ٱلْبابُ ؟ »

بَيْنَما كُنْتُ أُرَدِّدُ هٰذِهِ ٱلْأَسْئِلَةَ في نَفْسي ، إِذا بِشَيْءٍ يَحْجُبُ ٱلشَّمْسَ ، وَيُحَوِّلُ ٱلنَّهارَ لَيْلًا . وَرَفَعْتُ رَأْسي فَرَأَيْتُ طائِرًا ضَخْمًا جِدًّا . فَتَذَكَّرْتُ ما كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلْبَحّارَةِ عَنْ طائِرٍ هائِلِ ٱلْحَجْمِ يُقالُ لَهُ ٱلرُّخُّ . وَلَنا أَنْ نَتَخَيَّلَ



ضَخامَتَهُ ، إِذا عَلِمْنا أَنَّهُ يَزُقُّ صَغيرَهُ بِفيلٍ مَرَّةً واحِدَةً . وَهُنا تَأَكَّدَ لي أَنَّ ٱلطّائِرَ ٱلَّذي أَراهُ هُوَ ٱلرُّخُّ ، وَقَدْ جاءَ لِيَرْقُدَ عَلى ٱلْبَيْضَةِ . وَفِعْلًا حَضَنَ ٱلْبَيْضَةَ بِجَناحَيْهِ وَرَقَدَ عَلَيْها . وَهُنا جالَتْ في ذِهْني عِدَّةُ أَسْئِلَةٍ مِنْ بَيْنِها : « مِنْ أَيْنَ جاءَ ٱلرُّخُّ ، وَإِلى أَيْنَ سَيَطيرُ ؟ فَقَدْ يَطيرُ إِلى مَكانٍ مَأْهولٍ بِٱلسُّكّانِ ؛ فَمَكانٌ مَأْهولٌ أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ مَكانٍ مُقْفِرٍ .

أَسْرَعْتُ بِٱنْتِزاعِ عِمامَتي مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَساقِ ٱلرُّخِّ ٱلشَّبيهَةِ بِجِذْعِ ٱلشَّجَرَةِ ، وَأَحْكَمْتُ ٱلرِّباطَ . وَعِنْدَما طَلَعَ ٱلصَّباحُ ، طارَ بي في ٱلْجَوِّ دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِوُجودي . وَطارَ مَسافَةً بَعيدَةً فَوْقَ بِحارٍ

وَجُزُرٍ وَجِبالٍ وَوُدْيانٍ . وَأَخيرًا هَبَطَ في وادٍ سَحيقٍ ، تَحُفُّهُ الهِضابُ وَكَأَنَّها أَسْوارٌ شاهِقَةٌ .

وادي الماسِ

انْقَضَّ الرُّخُّ في الوادي عَلى أَفْعًى ضَخْمَةٍ ، فَخِفْتُ عَلى نَفْسي ، وَحَلَلْتُ عِمامَتي مِنْ ساقِهِ وَوَلَّيْتُ هارِبًا ، إِلى أَنْ وَجَدْتُ صَخْرَةً كَبيرَةً اخْتَبَأْتُ وَراءَها . أَمّا الرُّخُّ فَقَدْ رَفَعَ الأَفْعى بَيْنَ مَخالِبِهِ ، وَطارَ في الجَوِّ .

نَظَرْتُ حَوْلي فَرَأَيْتُ الأَفاعِيَ المُخيفَةَ تَسْعى في الوادي ، حَتّى إِنَّ بَعْضَها كانَ يُضارِعُ السَّفينَةَ في طُولِها . وَلٰكِنَّها في وَضَحِ النَّهارِ تَلْجَأُ إِلى جُحُورِها ، لِأَنَّها تَنامُ نَهارًا ، وَتَسْعى في طَلَبِ طَعامِها لَيْلًا . وَلِهٰذا لا خَوْفَ عَلَيَّ مِنْها في النَّهارِ ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَخْرَجٍ لي مِنَ الوادي . وَمَشَيْتُ مَسافَةً طَويلَةً ، وَإِذا بي أَرى أَنَّ قاعَ الوادي مُغَطًّى بِالماسِ النَّفيسِ ، وَبِأَحْجامٍ كَبيرَةٍ وَجَميلَةٍ ، وَلٰكِنَّني ما كُنْتُ راغِبًا في الماسِ ، بَلْ في الخُروجِ مِنْ ذٰلِكَ الوادي .

وَعِنْدَما حَلَّ اللَّيْلُ ، بَدَأَتِ الأَفاعي تَخْرُجُ مِنْ جُحورِها ، وَلِحُسْنِ حَظّي وَجَدْتُ نَفْسي عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ كَهْفٍ صَغيرٍ عَلى مَدْخَلِهِ صَخْرَةٌ كَبيرَةٌ ، فَجَرَيْتُ إِلَيْهِ وَأَزَحْتُ الصَّخْرَةَ الكَبيرَةَ عَنْ مَدْخَلِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ الصَّخْرَةُ نِعْمَةً لي ، إِذْ حَمَتْني طيلَةَ اللَّيْلِ مِنَ الأَفاعي الَّتي كُنْتُ أَسْمَعُ فَحيحَها حَوْلَ الكَهْفِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعِ الوُصولَ إِلَيَّ .

تُجّارُ الماسِ

في الصَّباحِ ، خَرَجْتُ مِنَ الكَهْفِ ، وَفِكْري مُنْصَرِفٌ إِلى كَيْفِيَّةِ الخُروجِ مِنَ الوادي . وَإِذا بي أَسْمَعُ صَوْتَ ارْتِطامِ شَيْءٍ بِالأَرْضِ قَريبًا مِنّي . وَالْتَفَتُّ إِلى جِهَةِ الصَّوْتِ ، فَشاهَدْتُ كُتْلَةً مِنَ اللَّحْمِ سَقَطَتْ عَلى قِطَعِ الماسِ ، وَالدَّمُ لا يَزالُ يَسيلُ مِنْها . فَعَجِبْتُ لِما أَرى ، وَعِنْدَها عادَتْ بِيَ الذّاكِرَةُ إِلى ما سَمِعْتُهُ عَنْ وادي الماسِ ، وَكَيْفَ يَتَحايَلُ التُّجّارُ عَلى جَمْعِهِ بِإِلْقاءِ كُتَلِ اللَّحْمِ فَوْقَ الماسِ في الوادي . وَمِنْ شَأْنِ حَرارَةِ الشَّمْسِ أَنْ تَجْعَلَ كُتَلَ اللَّحْمِ لَزِجَةً فَتَلْتَصِقَ بِها قِطَعُ الماسِ . وَتَجيءُ الطُّيورُ الضَّخْمَةُ فَتَحْمِلُها بَيْنَ مَخالِبِها ، وَتَطيرُ بِها لِتُطْعِمَ صِغارَها في الهِضابِ القَريبَةِ . وَما إِنْ تَهْبِطَ الطُّيورُ ، حَتّى يُفاجِئَها التُّجّارُ بِالصَّيْحاتِ القَوِيَّةِ ، فَتَنْفِرُ وَتَلوذُ بِالطَّيَرانِ ، وَيَذْهَبُ كُلُّ تاجِرٍ إِلى كُتْلَةِ اللَّحْمِ الَّتي أَلْقاها ، وَيَجْمَعُ ما لَصِقَ بِها مِنَ الماسِ .

قُلْتُ في نَفْسي : « لَقَدْ جاءَ بي إِلى هٰذا المَكانِ طائِرٌ ، وَمِنَ الضَّروريِّ أَنْ يَأْخُذَني مِنْ هٰذا المَكانِ طائِرٌ آخَرُ . » وَبِناءً عَلى هٰذا الافْتِراضِ ، مَلَأْتُ كيسَ الطَّعامِ الَّذي كانَ مَعي بِأَكْبَرِ قِطَعِ الماسِ وَأَنْفَسِها ، ثُمَّ فَكَكْتُ عِمامَتي وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَأَكْبَرِ كُتْلَةٍ مِنَ اللَّحْمِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّها ، وَاسْتَلْقَيْتُ عَلى الأَرْضِ بِحَيْثُ تَكونُ كُتْلَةُ اللَّحْمِ فَوْقي .

الإِنْقاذُ

بَعْدَ فَتْرَةٍ هَبَطَ طائِرٌ ضَخْمٌ جِدًّا وَرَفَعَني وَكُتْلَةَ اللَّحْمِ ، وَطارَ بي مِنْ

الوادي . وَكانَ صِغارُ الطّائِرِ بِانْتِظارِ أَبيهِمْ عِنْدَ قِمَّةِ الهَضْبَةِ . وَما إِنْ رَآهُ التُّجّارُ ، حَتّى تَعالَتْ صَيْحاتُهُمْ ، فَأَلْقى الطّائِرُ كُتْلَةَ اللَّحْمِ وَطارَ . وَقَدْ أُصيبوا بِالذُّعْرِ عِنْدَما رَأَوْني أَحُلُّ الرِّباطَ وَأَنْهَضُ عَلى قَدَمَيَّ وَالدَّمُ يُلَطِّخُ مَلابِسي ، وَدَلائِلُ المَرَضِ عَلى جِسْمي بَعْدَ رِحْلَتَيْنِ جَوِّيَتَيْنِ قُمْتُ بِهِما مَرْبوطًا في كُلِّ مَرَّةٍ إِلى ساقِ طائِرٍ . وَلٰكِنِّي هَدَّأْتُ مِنْ رَوْعِهِمْ . وَقُلْتُ لَهُمْ :

« أَنا رَجُلٌ مِثْلُكُمْ ، وَقَدْ حَمَلَني الطّائِرُ الَّذي حَمَلَ كُتْلَةَ اللَّحْمِ مِنْ وادي الماسِ . وَلَمْ يَلْصَقْ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ شَيْءٌ مِنَ الماسِ ، وَلٰكِنِّي أَحْضَرْتُ مَعي قِطَعًا مِنْهُ ، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ جَميعِ الماسِ الَّذي كانَ سَيَلْصَقُ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ . وَإِنّي بِكُلِّ سُرورٍ سَأُعْطي بَعْضًا مِنْها لِصاحِبِ كُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ . »

اقْتَرَبَ التُّجّارُ مِنّي ، وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ ، وَتَحَدَّثوا مَعي بِما خَفَّفَ عَنّي ما لاقَيْتُهُ ، فَقَدْ قالوا لي : « إِنَّكَ إِنْسانٌ مَحْظوظٌ ، إِذْ لَمْ يُقَدَّرْ لِإِنْسانٍ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هٰذا الوادي . »

وَساعَدَني التُّجّارُ عَلى بَيْعِ بَعْضِ قِطَعِ الماسِ ، وَالبَحْثِ عَنْ سَفينَةٍ تَقْصِدُ بَغْدادَ .

العَوْدَةُ

عُدْتُ إِلى بَغْدادَ رَجُلًا غَنِيًّا جِدًّا بِما أَحْمِلُهُ مَعي مِنْ أَكْبَرِ قِطَعِ الماسِ في العالَمِ وَمِنَ البَضائِعِ النَّفيسَةِ . وَعِنْدَما وَطِئَتْ قَدَمايَ أَرْضَ الوَطَنِ ، قُلْتُ

لِنَفْسي : « سَأَقْضي بَقِيَّةَ عُمْري في بَيْتِيَ الجَميلِ ، أُنْفِقُ مِنْ ثَرْوَتِيَ الطّائِلَةِ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِصُحْبَةِ أَصْدِقائي . أَمّا رُكوبُ البَحْرِ فَلا عَوْدَةَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ تَجَشَّمْتُ المَشاقَّ ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْأَخْطارِ في رِحْلَتَيَّ اللَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما . »

وَلٰكِنِّي لَمْ أَفِ بِما وَعَدْتُ ، بَلْ رَكِبْتُ البَحْرَ مَرَّةً ثالِثَةً . وَغَدًا إِنْ شاءَ اللهُ ، سَأُحَدِّثُكُمْ ، أَيُّها الأَصْدِقاءُ ، عَنْ رِحْلَتِي الثّالِثَةِ .

الرِّحْلَةُ الثّالِثَةُ

لَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتّى تاقَتْ نَفْسي لِزِيارَةِ بُلْدانٍ لَمْ أَزُرْها مِنْ قَبْلُ ، أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَكانَ أَنْ أَقْلَعْتُ مِنَ الْبَصْرَةِ مَعَ آخَرينَ مِنَ التُّجّارِ عَلى سَفينَةٍ عَظيمَةٍ ، راحَتْ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ إِلى جَزيرَةٍ . وَكُنّا نَبيعُ وَنَشْتَري وَنَكْسِبُ الْكَثيرَ ؛ فَكَثُرَتْ أَمْوالُنا ، وَزادَتْ ثَرَواتُنا ، عِلاوَةً عَلى السُّرورِ الَّذي نَعِمْنا بِهِ أَثْناءَ الرِّحْلَةِ .

وَوَسَطَ هذا الْجَوِّ مِنَ السُّرورِ الَّذي كُنّا نَعيشُهُ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ جَعَلَتْ مِنَ السَّفينَةِ أُلْعوبَةً تَتَلَهّى بِها ، تَقْذِفُها ذاتَ الْيَمينِ وَذاتَ الشِّمالِ . وَدامَتِ الْعاصِفَةُ أَرْبَعَةَ أَيّامٍ بِلَياليها ، كُنّا خِلالَها تَحْتَ رَحْمَتِها ، إِلى أَنْ وَجَدْنا أَنْفُسَنا عِنْدَ جَزيرَةٍ .

وَجاءَنا الرُّبّانُ ، وَعَلاماتُ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ مُرْتَسِمَةٌ عَلى وَجْهِهِ . وَقالَ : « لَنْ نَسْتَطيعَ مُواصَلَةَ الْإِبْحارِ في مِثْلِ هٰذا الْجَوِّ الْعاصِفِ ، وَلا نَسْتَطيعُ النُّزولَ فَوْقَ هٰذِهِ الْجَزيرَةِ ، فَأَنا أَعْرِفُ الْكَثيرَ عَنْها؛ إِنَّهُ تَعيشُ فَوْقَها جَماعاتٌ مِنَ الْقُرودِ ، إِذا رَأَتْ سَفينَةً صَعِدَتْ إِلى ظَهْرِها بِالْآلافِ . وَلَوْ حاوَلَ أَحَدٌ مَنْعَها مِنَ الصُّعودِ ، هَجَمَتْ عَلَيْهِ جُموعُها وَفَتَكَتْ بِهِ . وَعَلَيْهِ أَرْجو أَلّا يُحاوِلَ أَحَدُكُمُ التَّعَرُّضَ لَها . »

القُـرُودُ

ما كادَ الرُّبّانُ يُتِمُّ كَلامَهُ ، حَتّى أَخَذَتِ الْقُرودُ تَتَوافَدُ بِالْآلافِ . وَصَعِدَتْ إِلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، دونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَها أَحَدٌ ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِالْبَحّارَةِ وَالتُّجّارِ وَأَنْزَلَتْهُمْ إِلى الْجَزيرَةِ . وَقامَتْ بِتَسْييرِ السَّفينَةِ إِلى جِهَةٍ أُخْرى بَعيدًا عَنِ الْجَزيرَةِ .

بَعْدَ اسْتيلاءِ الْقُرودِ عَلى السَّفينَةِ وَما فيها ، أَخَذْنا نُنْعِمُ النَّظَرَ فيما نَحْنُ فيهِ ؛ فَتَوارَدَتْ عَلى خَواطِرِنا الْأَفْكارُ وَالِافْتِراضاتُ : « مِنَ الْمُسَلَّمِ بِهِ أَنَّ في الْجَزيرَةِ قُرودًا أُخْرى لا حَصْرَ لَها . ماذا عَسانا أَنْ نَفْعَلَ ؟ ما هُوَ الْمَكانُ الَّذي نَسْتَطيعُ الذَّهابَ إِلَيْهِ ؟ »

وَشاهَدَ أَحَدُ الْبَحّارَةِ مِنْ أَعْلى شَجَرَةٍ كانَ يَقِفُ عَلَيْها بَيْتًا حَجَرِيًّا ضَخْمًا ، فَقالَ مُتَسائِلًا : « أَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نَقْصِدَ ذٰلِكَ الْبَيْتَ وَنَخْتَبِئَ فيهِ لِاتِّقاءِ شَرِّ هٰؤُلاءِ الْقُرودِ ؟ »

في ذٰلِكَ الْبَيْتِ الْحَجَرِيِّ ، دَخَلْنا قاعَةً فَسيحَةً ، وَكُلُّنا يَتَطَلَّعُ بِحِرْصٍ إِلى ما سَنُفاجَأُ بِهِ . وَإِذا بِنا نَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامِ مارِدٍ . وَما إِنْ دَخَلَ الْقاعَةَ ، حَتّى أَغْلَقَ الْبابَ الضَّخْمَ خَلْفَهُ ؛ فَسَدَّ أَمامَنا طَريقَ الْهَرَبِ .

طَعامُ الْمارِدِ

كانَ الْمارِدُ ضَخْمَ الْجُثَّةِ ، وَكَأَنَّهُ شَجَرَةٌ باسِقَةٌ بِعَيْنَيْنِ وَكَأَنَّهُما شُعْلَتانِ مِنْ

نارٍ مُتأجِّجةٍ . وأسنانٍ كأنَّها صُخورٌ حادَّةٌ بيضاءُ ، وفمٍ كأنَّهُ كهفٌ . وبَعدَ أنِ استقرَّ بِهِ المُقامُ ، أخرجَ بعضَ الحطبِ مِن صُندوقٍ في القاعةِ ، وأشعَلَ نيرانًا كبيرةً . ثُمَّ أخذ يتفرَّسُ في وُجوهِنا . وكُنتُ أوَّلَ مَن رفعَهُ بيدِهِ . وأخذ يُقلِّبُني ؛ فوَجَدَني ضعيفًا هزيلًا فتركَني . ولِحُسنِ الحظِّ ، أنَّ ملابسي الفاخِرةَ كانَتْ تكسو جِسمًا ليسَ بأسمنَ مِن أُصبُعِهِ . ثُمَّ أخذ يرفعُ الرِّجالَ ، واحِدًا تِلوَ الآخرِ ، حتَّى وجدَ الأسمنَ ؛ فأكلَهُ . وبعدَ أنِ استراحَ قليلًا ، غرِقَ في نومٍ عميقٍ .

وفي صباحِ اليومِ التّالي ، غادرَ المارِدُ البيتَ ، بعدَ أنْ أغلقَ البابَ الضَّخمَ



خلفَهُ ؛ فتعذَّرَ علينا الخروجُ . وعِندما حلَّ المساءُ ، عادَ المارِدُ ثانيةً ، وأخذَ يرفعُنا بيدِهِ ، واحِدًا تِلوَ الآخرِ ، حتَّى وجدَ ضالَّتَهُ في شخصِ رُبّانِ السَّفينةِ ؛ فأكلَهُ ونامَ .

فِرارُنا مِنَ المارِدِ

بعدَ أنْ غادرَ المارِدُ البيتَ في صباحِ اليومِ التّالي ، وأوصدَ البابَ خلفَهُ ، خاطبْتُ أصحابي قائلًا : « علينا أنْ نفعلَ شيئًا ، وإلّا فسيأكُلُنا المارِدُ واحِدًا بعدَ الآخرِ . إنَّهُ ضخمٌ فلا نستطيعُ الفتكَ بِهِ في حالةِ يقظتِهِ . » ثُمَّ أطلعْتُهُمْ على الخُطَّةِ الَّتي دبَّرتُها .

في مساءِ ذلكَ اليومِ ، حضرَ المارِدُ – كعادتِهِ – وجلسَ في القاعةِ ، وأخذَ واحِدًا مِنّا والتهمَهُ ، ثُمَّ نامَ .

وبِمُنتهى السُّرعةِ شرَعْنا في تنفيذِ خُطَّتِنا : وضعَ اثنانِ مِنّا قضيبَيْنِ مِنَ الحديدِ في النّارِ حتَّى أصبحا مِثلَ جمرتَيْنِ . وفي نفسِ الوقتِ قامَ اثنانِ آخرانِ بخرقِ منفذٍ في البابِ ، على حينِ انصرفَ اثنانِ إلى بناءِ عِدَّةِ أطوافٍ مِن قِطعِ الخشبِ الَّتي كانَ المارِدُ قدْ وضعَها في الصُّندوقِ .

وما إنْ تمَّ كُلُّ شيءٍ حسبَ الخُطَّةِ المرسومةِ ، حتَّى صِحْتُ فيهِمْ قائلًا : « الآنَ ! » وهيَ كلِمةُ السِّرِّ بيننا . فغرزْنا القضيبَيْنِ المُلتهبَيْنِ في عينَيْهِ ، ثُمَّ ولَّينا الأدبارَ ، حامِلينَ الأطوافَ الَّتي أعددْناها ، وجرَيْنا نحوَ الشّاطئِ .

وكانَتْ صرَخاتُ المارِدِ تطِنُّ في آذانِنا . وأنزلْنا الأطوافَ إلى الماءِ . وما

كِدْنا نَتَحَرَّكُ ، حَتّى رَأَيْنا ٱلمارِدَ ، يَقودُهُ اثْنانِ مِنْ أَصْدِقائِهِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ، يَسيرونَ إِلى ٱلشّاطِئِ . وَما إِنْ أَبْصَرانا حَتّى قَذَفانا بِالصُّخورِ ٱلكَبيرَةِ ، وَكانَتِ ٱلواحِدَةُ مِنْها في حَجْمِ ٱلبَيْتِ . وَقَدْ سَقَطَ بَعْضُها في ٱلبَحْرِ ، وَأَصابَ بَعْضُها ٱلآخَرُ أَطْوافَنا ، وَقَتَلَ بَعْضَ رِجالِنا . وَلَمْ يَنْجُ إِلّا ٱلطَّوْفُ ٱلَّذي كُنْتُ فيهِ . وَقَدْ بَذَلْنا أَقْصى ٱلجُهودِ نُحاوِلُ ٱلخُروجَ بِهِ إِلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ . ثُمَّ هَبَّتْ عَواصِفُ عاتِيَةٌ حَمَلَتْنا بَعيدًا ، وَظَلَّتْ تَتَقاذَفُنا أَيّامًا ، إِلى أَنْ أَلْقَتْ بِنا عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ .

الأَفْعـــى

لَمْ يُكْتَبِ ٱلنَّجاةُ إِلّا لِثَلاثَةٍ مِنّا . وَلٰكِنَّ أَحْوالَنا كانَتْ سَيِّئَةً ، فَكانَ قَدْ مَضى عَلَيْنا وَقْتٌ طَويلٌ بِدونِ طَعامٍ أَوْ ماءٍ . وفي ٱلجَزيرَةِ وَجَدْنا أَشْجارَ فاكِهَةٍ وَنُهَيْرًا عَذْبَ ٱلمِياهِ ، فَأَكَلْنا وَشَرِبْنا .

بَعْدَ تِلْكَ ٱلرِّحْلَةِ ٱلمُضْنِيَةِ في ٱلطَّوْفِ ، غَزا ٱلنُّعاسُ أَجْفانَنا ؛ فَرُحْنا في سُباتٍ عَميقٍ ، وَلَمْ يوقِظْنا إِلّا فَحيحٌ مُتَواصِلٌ . وَنَظَرْنا حَوْلَنا .. وَيالَهَوْلِ ما رَأَيْنا ! رَأَيْنا أَفْعى ضَخْمَةً ٱلْتَفَّتْ حَوْلَنا ، بِحَيْثُ لَمْ نَسْتَطِعِ ٱلفِرارَ . ثُمَّ بَدَأَتْ بِواحِدٍ مِنْ صاحِبَيَّ ، فَٱبْتَلَعَتْهُ دونَ أَنْ تَنْهَشَ لَحْمَهُ ، بَلْ رَأَيْناهُ وَهُوَ يَدْخُلُ في جَوْفِها ، وَسَمِعْنا صَيْحاتِ اسْتِغاثَتِهِ تَتَرَدَّدُ بَعْضَ ٱلوَقْتِ ثُمَّ تَهْمُدُ إِلى ٱلأَبَدِ .

قَضَتِ ٱلأَفْعى ٱللَّيْلَةَ بِطولِها في مَكانِها ، عَلى حينَ تَمَلَّكَني وَصاحِبي ٱلذُّعْرُ ؛ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدُنا أَوْ يَنْبِسْ بِكَلِمَةٍ . وَفي ٱلصَّباحِ ، انْسابَتْ راجِعَةً إِلى

جُحْرِها . وَتَشاوَرْتُ وَصاحِبي فيما يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَهُ ، قَبْلَ أَنْ تَعودَ ٱلأَفْعى وَتَبْتَلِعَ أَحَدَنا . وَأَخَذْنا نَجولُ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَنَقْطِفُ ٱلثِّمارَ وَنَرْتَوي مِنْ مِياهِ ٱلنُّهَيْرِ ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ كَهْفٍ نَخْتَبِئُ فيهِ ؛ وَلٰكِنَّنا فَشِلْنا في مُحاوَلَتِنا . وَقَبْلَ حُلولِ ٱلظَّلامِ صَعِدْنا شَجَرَةً لِنَنامَ فَوْقَها . وَلَمّا كُنْتُ أَتَفَوَّقُ عَلى زَميلي في ٱلقُوَّةِ ٱلجِسْمِيَّةِ ، فَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْعَدَ أَعْلى مِنْهُ . وَلَمّا حَلَّ ٱللَّيْلُ ، عادَتِ ٱلأَفْعى تَبْحَثُ عَنّا . فَتَسَلَّقَتِ ٱلشَّجَرَةَ وَٱبْتَلَعَتْ صاحِبي . وَظَلَلْتُ هُنَيْهَةً أَسْمَعُ صَيْحاتِ ٱلاسْتِغاثَةِ مِنْ جَوْفِ ٱلأَفْعى تَطِنُّ في أُذُنَيَّ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا .

في ٱلصَّباحِ ، غادَرَتِ ٱلأَفْعى ٱلمَكانَ ، فَساءَلْتُ نَفْسي : « ماذا عَسايَ أَنْ أَفْعَلَ ؟ سَتَعودُ ٱلأَفْعى لَيْلًا وَتَفْعَلُ بي ما فَعَلَتْ بِصاحِبَيَّ . هَلْ أَقْذِفُ بِنَفْسي في ٱلبَحْرِ لِأَنْجُوَ مِنْ شَرِّها ؟ »

بَعْدَ أَنْ تَناوَلْتُ بَعْضَ ٱلفاكِهَةِ ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ ، وَأُفَكِّرُ . وَأَخيرًا قَرَّرْتُ أَنْ أَسيرَ عَلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ . وَلِحُسْنِ ٱلحَظِّ لَمْ أَرَ لِلقُرودِ أَثَرًا في تِلْكَ ٱلجَزيرَةِ . وَلٰكِنّي رَأَيْتُ أَكْوامًا مِنَ ٱلخَشَبِ وَٱلحِبالِ ، وَكانَتْ مِنْ بَقايا سُفُنٍ مُحَطَّمَةٍ . وَعَلى ٱلفَوْرِ اخْتَرْتُ قِطَعًا طَويلَةً مِنَ ٱلخَشَبِ وَضَعْتُها حَوْلَ قَدَمَيَّ وَفَوْقَ رَأْسي وَحَوْلَ جِسْمي وَجانِبَيَّ ، وَشَدَدْتُها بِٱلحِبالِ لِأُثَبِّتَها ، وَرَقَدْتُ عَلى ٱلأَرْضِ انْتِظارًا لِما سَيَحْدُثُ .

لَمّا هَبَطَ ٱللَّيْلُ ، رَأَيْتُ ٱلأَفْعى تَفْتَحُ فَمَها وَتَنْقَضُّ عَلى رَأْسي ، وَعَلى جانِبي ، وَعَلى قَدَمَيَّ وَعَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنْ جِسْمي ، وَلٰكِنَّها فَشِلَتْ في

الوُصولِ إلَيَّ . فَقَدْ مَنَعَتْها قِطَعُ الخَشَبِ مِنْ تَحْقيقِ مَأْرِبِها . وَرَغْمَ مُحاوَلاتِها المُتَكَرِّرةِ لَمْ تُفْلِحْ في الوُصولِ إلى أيِّ عُضْوٍ مِنْ أعْضاءِ جِسْمي . وَلَمَّا أعْيَتْها الحِيَلُ ، غادَرَتِ المَكانَ .

في الصَّباحِ ، صَنَعْتُ لِنَفْسي زَوْرَقًا مِنْ بَقايا حُطامِ السُّفُنِ وَقِطَعِ الخَشَبِ وَالحِبالِ ، ثُمَّ جَمَعْتُ بَعْضَ الفاكِهةِ ، وَمَلأْتُ بَعْضَ الأَواني بِالماءِ ، وَنَزَلْتُ البَحْرَ هَرَبًا مِنْ تِلْكَ الجَزيرةِ الرَّهيبةِ .

سفينـةُ النَّجـاةِ

لا أُريدُ أنْ أتَذَكَّرَ تِلْكَ الأيّامَ الَّتي قَضَيْتُها في عُرْضِ البَحْرِ على زَوْرَقٍ مَكْشوفٍ ، حينَما كانَتِ الشَّمْسُ تَلْفَحُني بِحَرارَتِها المُتَوَهِّجةِ ، وَالأمْواجُ تَقْذِفُ بالزَّوْرَقِ هُنا وَهُناكَ . وَلٰكِنْ ، ما بَعْدَ العُسْرِ إلّا اليُسْرُ ، وَما بَعْدَ الضِّيقِ إلّا الفَرَجُ ، فَقَدْ لاحَتْ لي عَنْ بُعْدٍ سَفينةٌ تَمْخُرُ عُبابَ البَحْرِ .

وَقَدْ لَعِبَ الحَظُّ دَوْرَهُ ، عِنْدَما شاهَدَني بَحّارَتُها ؛ فَأَسْرَعوا لإنْقاذي ، وَأَحْسَنوا مُعامَلَتي . وَقَدْ سَمِعَ الرُّبّانُ وَبَعْضُ البَحّارةِ بِمَأْساتي ؛ فَطَيَّبَ الرُّبّانُ خاطِري قائِلًا : « سَنَحْمِلُكَ إلى البَصْرةِ ، بَعْدَ زِيارَتِنا لِبَعْضِ الأَماكِنِ ، حَيْثُ سَيَبيعُ التُّجّارُ بَضائِعَهُمْ وَيَبْتاعونَ غَيْرَها . وَإذا ما طابَتِ الرّيحُ في رِحْلَتِنا ، حَمَلْناكَ إلى البَصْرةِ في أقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ . »

وَفي أوَّلِ ميناءٍ رَسَتْ فيهِ السَّفينةُ ، سَمِعْتُ الرُّبّانَ يُلْقي بِأَوامِرِهِ إلى

البَحّارةِ : « أَحْضِروا بَضائِعَ السِّنْدِبادِ لِنَبيعَها وَنُسَلِّمَ ثَمَنَها إلى أُسْرَتِهِ في بَغْدادَ . »

وَلَمّا سَمِعْتُ ما قالَهُ الرُّبّانُ ، تَقَدَّمْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَحْمِلُ البَضائِعُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً ؟ » لِأَنّي أَضَعُ عَلاماتٍ خاصَّةً دائِمًا عَلى بَضائِعي وَصَناديقي في جَميعِ رِحْلاتي . فَأَجابَني الرُّبّانُ : « نَعَمْ ! إنَّ البِضاعةَ تَحْمِلُ عَلاماتٍ مُمَيِّزةً . وَلٰكِنْ ، كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟! لَقَدْ مَضى عَلى هٰذِهِ البِضاعةِ زَمَنٌ طَويلٌ وَهِيَ أَسْفَلَ جَميعِ البَضائِعِ الأُخْرى ، وَقَدْ لَقِيَ صاحِبُها حَتْفَهُ في جَزيرةِ الرُّخِّ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . »

فَأَجَبْتُهُ بِقَوْلي : « أَيُّها الرُّبّانُ ! إنَّ صاحِبَها لَمْ يَمُتْ ، بَلْ هُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ ، فَأَنا السِّنْدِبادُ . »

وَرَوَيْتُ لَهُ ما جَرى لي مُنْذُ البِدايةِ حَتّى النِّهايةِ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلى الرُّبّانِ أَنْ يُصَدِّقَني في الحالِ . وَلٰكِنَّهُ اقْتَنَعَ أَخيرًا بِصِدْقِ قَوْلي ، لِما أَوْرَدْتُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ واضِحةٍ . وَبَعْدَ أَنْ بِعْتُ بِضاعَتي وَاشْتَرَيْتُ غَيْرَها لِأَبيعَها في بَغْدادَ ، وَجَدْتُ ثَرْوَتي قَدِ ازْدادَتْ أَضْعافًا مُضاعَفةً بَعْدَ الرِّحْلةِ الثّالِثةِ . وَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَعيشَ سَعيدًا في بَغْدادَ دونَ أَنْ أُغامِرَ في أَيَّةِ رِحْلةٍ أُخْرى .

وَلٰكِنّي أَخْلَفْتُ الوَعْدَ . وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا – إنْ شاءَ اللهُ – عَنْ رِحْلَتي الرّابِعةِ .

الرِّحْلَةُ الرّابِعَةُ

فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، قَدِمَ لِزِيارَتي بَعْضُ التُّجّارِ ، وَجَلَسْنا نَسْتَعيدُ ذِكْرَياتِ الأَيّامِ الخالِيَةِ ، بِما فيها مِنْ رِحْلاتٍ ، وَبِما زُرْنا مِنْ أَماكِنَ . وَلَمْ يَحْضُرْنا في حَديثِنا إلّا حُلْوُ الذِّكْرَياتِ . وَتَطَرَّقَ بِنا الحَديثُ إلى ضَرورَةِ القِيامِ بِرِحْلَةٍ إلى الشَّرْقِ ، لِما فيها مِنْ فَوائِدَ لَنا . وَما إنِ اتَّفَقْنا حَتّى حَزَمْتُ بَعْضَ البَضائِعِ ، وَأَبْحَرْنا جَنوبًا فَشَرْقًا قاصِدينَ بُلْدانَ الشَّرْقِ الغَنِيَّةِ بِخَيْراتِها . وَقَدْ أَخَذَتِ السَّفينَةُ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ جَزيرَةٍ إلى جَزيرَةٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إلى بَحْرٍ ، نَبيعُ وَنَشْتَري ، وَنُمَتِّعُ عُيونَنا بِمَباهِجِ الحَياةِ في تِلْكَ البِلادِ .

وَفي إحْدى اللَّيالي ، وَنَحْنُ عَلى بُعْدٍ شاسِعٍ مِنَ الوَطَنِ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ أَطاحَتْ بِالسَّفينَةِ وَقَلَبَتْها عَلى جانِبِها ، وَقَذَفَتْ بِنا وَسَطَ البَحْرِ . وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمَتِهِ ، وَأَيْقَنْتُ وَأَنا أُشاهِدُ السَّفينَةَ تَغوصُ في أَعْماقِ البَحْرِ أَنَّها ساعَتي الأَخيرَةُ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُصارِعُ الأَمْواجَ ، رَأَيْتُ لَوْحًا مِنَ الخَشَبِ يَقْتَرِبُ مِنّي ، فَأَمْسَكْتُ بِهِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، وَعاوَنْتُ بَعْضَ التُّجّارِ وَالبَحّارَةِ عَلى أَنْ يَتَعَلَّقوا بِأَلْواحٍ خَشَبِيَّةٍ أُخْرى كانَتْ تَطْفو فَوْقَ الماءِ .

أَحْياءٌ عَلى الشّاطِئِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّياحُ وَالأَمْواجُ تَدْفَعُنا إلى أَنْ قَذَفَتْ بِنا عَلى اليابِسَةِ . وَمِنْ شِدَّةِ

ما لَحِقَنا مِنْ تَعَبٍ ، قَضَيْنا لَيْلَتَنا حَيْثُ كُنّا . وَما إنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، حَتّى طَلَعَ عَلَيْنا بَعْضُ الرِّجالِ ، وَكانوا شَديدي البَشاعَةِ . وَأَخَذونا إلى مَلِكِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْسَعونا ضَرْبًا بِأَيْديهِمْ وَرَكْلًا بِأَقْدامِهِمْ .

وَلَمّا مَثُلْنا أَمامَ المَلِكِ ، أَمَرَ رِجالَهُ بِإجْلاسِنا وَتَقْديمِ الطَّعامِ لَنا . وَكانَ الطَّعامُ غَريبًا ، لَمْ أَرَ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنَّ الجوعَ دَفَعَ التُّجّارَ وَالبَحّارَةَ إلى تَناوُلِهِ ، أَمّا أَنا ، فَلَمْ تَقْبَلْهُ نَفْسي ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ إلَيْهِ أَصابَني بِالغَثَيانِ .

ما أَسْعَدَني ! فَالحَظُّ لَمْ يُفارِقْني . لَقَدْ تَرَكَ الطَّعامُ أَثَرًا غَريبًا في أَصْحابي ، فَرَأَيْتُهُمْ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ وَنَهَمٍ وَبَلاهَةٍ ، حَتّى إنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ كانَ يَغْرِفُ الطَّعامَ بِكِلْتا يَدَيْهِ لِيُشْبِعَ نَهَمَهُ . كُلُّ هٰذا كانَ يَجْري عَلى مَشْهَدٍ مِنّي . وَقَدْ تَذَكَّرْتُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ما كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ البَشِعينَ الَّذينَ إذا وَقَعَ في أَيْديهِمْ أُناسٌ مِنْ بُلْدانٍ أُخْرى ، قَدَّموا لَهُمْ مِثْلَ هٰذا الطَّعامِ الَّذي يَجْعَلُ آكِليهِ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ ، فَيَزْدادونَ سِمْنَةً بِشَكْلٍ عَجيبٍ . وَبَعْدَها يُقَدِّمونَ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِلرِّجالِ البَشِعينَ . وَلَمْ يَسَعْني إلّا أَنْ أَصْرُخَ فيهِمْ ، طالِبًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَقَّفوا عَنِ الأَكْلِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجيبوا لِدَعْوَتي ، إذْ كانَ هَمُّهُمُ الوَحيدُ حَشْوَ بُطونِهِمْ ، وَلا شَيْءَ سِواهُ .

الفِرارُ

أَخَذَ أَصْحابي يَزْدادونَ سِمْنَةً ، يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ، وَكانَ الرِّجالُ البَشِعونَ لا يُفارِقونَهُمْ ، وَلا يَنْقَطِعونَ عَنْ حَثِّهِمْ عَلى تَناوُلِ المَزيدِ مِنَ الطَّعامِ ، في الوَقْتِ



الَّذي كانُوا يَرَوْنَني أَزْدادُ هُزالًا . لِانْقِطاعي عَنِ الطَّعامِ . وَلا يَحْفِلونَ بي ، لِأَنَّ ما عِنْدَهُمْ يَكْفيهِمْ

وَكانَ الأَلَمُ يَعْصِرُني ، وَأَنا أَرى ما يَفْعَلُهُ أَصْحابي ، وَأَتَخَيَّلُ المَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ . فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْ سَبيلٍ إِلى إِنْقاذِهِمْ ، وَلٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْجُوَ بِنَفْسي ، لِأَنَّ بَقائي دونَ طَعامٍ يُعَجِّلُ بِهَلاكي . إِنَّ أَصْحابي لَمْ يَسْتَطيعوا الابْتِعادَ عَنِ الرِّجالِ البَشِعينَ ، بَلْ قُلْ إِنَّهُمْ ما كانوا يُريدونَ ذٰلِكَ ، مادامَ الرِّجالُ البَشِعونَ لا يَنْقَطِعونَ عَنْ وَضْعِ الطَّعامِ أَمامَهُمْ . وَلَمْ يُكَلِّفْ

أَحَدٌ مِنَ البَشِعينَ نَفْسَهُ النَّظَرَ إِلى رَجُلٍ هَزيلٍ مِثْلي . وَقَدْ يَسَّرَ ذٰلِكَ سُبُلَ النَّجاةِ أَمامي ، عِنْدَما اخْتَبَأْتُ ذاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، وَمِنْها سِرْتُ إِلى الغابَةِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ بَعْضَ الفاكِهَةِ الَّتي أَعْرِفُها ، وَالَّتي لا يُشَكِّلُ تَناوُلُها خَطَرًا وَأَفادَتْني الفاكِهَةُ في اسْتِعادَةِ قُوَّتي ، فاسْتَطَعْتُ الإِسْراعَ في سَيْري . وَقَدْ قَضَيْتُ أُسْبوعًا ، أَسيرُ مَرَّةً وَأَتَوَقَّفُ أُخْرى لِتَناوُلِ الفاكِهَةِ وَشُرْبِ الماءِ ، إِلى أَنْ لَقيتُ جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ . وَعِنْدَما رَآني أُولٰئِكَ الرِّجالُ أَسْرَعوا إِلَيَّ ، وَسُيوفُهُمْ في أَيْديهِمْ ، فَصَرَخْتُ فيهِمْ : « أَرْجوكُمْ أَنْ تَسْتَمِعوا إِلَيَّ . »

وَكَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ هُوِيَّتي وَحَدَّثْتُهُمْ عَنِ البَلَدِ الَّذي قَدِمْتُ مِنْهُ . وَأَخْبَروني بِأَنَّ مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَجيئوا مَرَّةً كُلَّ عامٍ إِلى تِلْكَ الجَزيرَةِ وَلٰكِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ شَرَّ الرِّجالِ البَشِعينَ .

سَرْجُ المَلِكِ

وَمِمّا قالوهُ لي : « لَمْ تُكْتَبِ السَّلامَةُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ وَطِئَتْ قَدَماهُ أَرْضَ هٰذِهِ الجَزيرَةِ . » وَاصْطَحَبوني مَعَهُمْ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلى جَزيرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعَ المَلِكُ حِكايَتي ، وَرَغِبَ في التَّحَدُّثِ إِلَيَّ . وَقَدْ كانَ مِثالًا لِلطّيبَةِ وَكَرَمِ الخُلُقِ ، حَتّى إِنَّهُ خَصَّصَ لي غُرْفَةً في قَصْرِهِ الفَخْمِ . وَكَثيرًا ما كانَ يَسْتَدْعيني لِلاسْتِماعِ إِلى مُغامَراتي في رِحْلاتي ، وَأَحاديثي عَنْ مَدينَةِ بَغْدادَ العَظيمَةِ . وَالحَقُّ يُقالُ إِنَّ عاصِمَةَ مَمْلَكَتِهِ كانَتْ عامِرَةً بِأَهْلِها ، غَنِيَّةً في كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْ نَواحي الحَياةِ إِلّا في شَيْءٍ واحِدٍ . فَقَدْ كانَ النّاسُ يَرْكَبونَ الخَيْلَ بِلا سُروجٍ ، مَعَ أَصالَةِ تِلْكَ الخُيولِ وَبَراعَةِ فُرْسانِها .

وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلمَلِكَ يَوْمًا : « أَيُّها ٱلمَلِكُ ٱلعَظِيمُ ، بِمَ لا تَسْتَعْمِلُ ٱلسَّرْجَ عِنْدَ رُكوبِكَ ٱلحِصانَ ؟ »

دَهِشَ ٱلمَلِكُ وَسَأَلَني : « ماذا تَقولُ ؟ ما هُوَ ٱلسَّرْجُ ٱلَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ »

وَكانَ جَوابي : « هَلْ تَأْذَنُ لي يامَوْلايَ أَنْ أَصْنَعَ لَكَ سَرْجًا ، إذا ما اسْتَعْمَلْتَهُ ، وَجَدْتَ فيهِ ٱلجَوابَ عَنْ سُؤالِكَ ، وَلَمَسْتَ عَظيمَ فَوائِدِهِ ؟ »

وَسُرْعانَ ما صَنَعْتُ سَرْجًا فاخِرًا ، وَوَضَعْتُهُ عَلى ظَهْرِ حِصانِهِ . وَبَعْدَ أَنْ رَكِبَهُ سُرَّ بِالسَّرْجِ كَثيرًا . وَانْهالَتْ عَلَيَّ بَعْدَها طَلَباتُ رِجالِ حاشِيَةِ ٱلمَلِكِ وَعِلْيَةِ ٱلقَوْمِ لِصُنْعِ ٱلسُّروجِ ، فَكَسَبْتُ ٱلأَمْوالَ ٱلكَثيرَةَ مِنْ صِناعَتِها ، عِلاوَةً عَلى ٱلسَّعادَةِ ٱلَّتي كُنْتُ أُحِسُّ بِها لِلصَّداقَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَرْبُطُني بِٱلمَلِكِ وَرِجالِهِ .

زَواجي

ذاتَ يَوْمٍ ، قالَ لِيَ ٱلمَلِكُ : « لَقَدْ أَصْبَحْتَ واحِدًا مِنّا ، نُوليكَ صادِقَ حُبِّنا كَأَخٍ لَنا . وَلٰكِنْ ثَمَّةَ شَيْئًا يُقَرِّبُكَ مِنّا أَكْثَرَ . »

وَبِكُلِّ أَدَبٍ قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها ٱلمَلِكُ ٱلعَظيمُ ! أَمْرُكَ مُطاعٌ . وَلَنْ أَرُدَّ لَكَ أَمْرًا . »

أَثْلَجَتْ كَلِماتي صَدْرَهُ ، فَابْتَسَمَ قائِلًا : « عَلَيْكَ بِالزَّواجِ يابُنَيَّ ! فَفي

ٱلمَدينَةِ فَتاةٌ عَلى جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ ٱلجَمالِ وَٱلثَّراءِ ، وَهِيَ ٱبْنَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، وَهٰأَنَذا أَدْعوكَ إِلى ٱلاقْتِرانِ بِها . »

وَسُرْعانَ ما تَمَّتْ مَراسِمُ ٱلزَّواجِ ، وَزُفَّتِ ٱلعَروسُ إِلَيَّ . وَكَما قالَ ٱلمَلِكُ فَإِنَّ زَوْجَتي كانَتْ ذاتَ ثَرْوَةٍ وَجَمالٍ ، وَكانَتْ تَتَمَتَّعُ بِما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَدْ وَجَدْتُ فيها ما جَعَلَني أُحِبُّها وَتُحِبُّني . وَعِشْنا في مُنْتَهى ٱلسَّعادَةِ لِعِدَّةِ أَسابيعَ .

وَذاتَ يَوْمٍ ماتَتْ زَوْجَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُعَزِّيًا ، عَمَلًا بِما تَقْتَضيهِ رَوابِطُ ٱلصَّداقَةِ ساعَةَ ٱلحُزْنِ . وَلٰكِنَّني وَجَدْتُهُ لَيْسَ حَزينًا فَقَطْ ، بَلْ مَريضًا . وَلَمّا اقْتَرَبْتُ مِنْ فِراشِهِ ، خاطَبْتُهُ بِقَوْلي : « ياصَديقي ! إِنَّها إِرادَةُ ٱللهِ ، وَلا يَحْسُنُ بِٱلإِنْسانِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ إِلى ٱلحُزْنِ ، إِذا فَقَدَ زَوْجَتَهُ . وَما عَلَيْكَ إِلّا ٱلصَّبْرُ ، وَتَعْويدُ نَفْسِكَ عَلى ٱلعَيْشِ بِدونِها . »

كَهْفُ ٱلمَوْتى

كانَتْ مُفاجَأَةً لي عِنْدَما رَدَّ عَلَيَّ قائِلًا : « ماذا تَقولُ ياصاحِبي ؟ أَلا تَعْرِفُ ٱلقانونَ ٱلَّذي يَحْكُمُنا في هٰذا ٱلبَلَدِ ، وَٱلَّذي يَقْضي بِأَنْ يُدْفَنَ ٱلحَيُّ مَعَ ٱلمَيِّتِ ؟ فَٱلزَّوْجَةُ إِذا ماتَ زَوْجُها ، دُفِنَتْ مَعَهُ حَيَّةً ، كَما أَنَّ ٱلزَّوْجَ إِذا ماتَتْ زَوْجَتُهُ ، دُفِنَ مَعَها حَيًّا . اعْلَمْ ياأَخي ، إِنَّهُمْ سَيُلْقونَ بي بَعْدَ ظُهْرِ هٰذا ٱليَوْمِ ، في كَهْفِ ٱلمَوْتى إِلى أَنْ أَموتَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ، حُمِلَ جُثْمانُ ٱلزَّوْجَةِ خارِجَ ٱلمَدينَةِ ، إِلى مَكانٍ



فِي جانِبِ ٱلجَبَلِ . وَأَزاحُوا صَخْرَةً كَبيرةً عَنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ ، وَأَلْقَوْا بِالجُثْمانِ فيهِ . ثُمَّ جاءُوا بِالحِبالِ وَاسْتَخْدَموها في إِنْزالِ صَديقي في كَهْفِ المَوْتَى ، إِلى جانِبِ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ أَعادوا ٱلصَّخْرَةَ إِلى مَكانِها . وَكانَ ٱلجُنودُ يَمْنَعونَ مَنْ يُحاوِلُ ٱلاقْتِرابَ مِنَ ٱلكَهْفِ . وَلَمَّا سَأَلْتُ ٱلمَلِكَ عَنْ ذٰلِكَ أَجابَني : « إِنَّها عادَةٌ قَديمَةٌ مُتَوارَثَةٌ ، وَلا أَسْتَطيعُ إِلْغاءَها . »

فِي كَهْفِ ٱلمَوْتَى

لَمْ يَمْضِ عَلى زَواجِيَ ٱلسَّعيدِ سِوَى بِضْعَةِ أَسابيعَ ، حَتَّى مَرِضَتْ زَوْجَتي فَتْرَةً ثُمَّ ماتَتْ . وَحَضَرَ ٱلقَوْمُ لِنَقْلِ جُثْمانِها إِلى كَهْفِ ٱلمَوْتَى ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « لَنْ تَأْخُذوني مَعَها إِلى ٱلقَبْرِ ، لِأَنّي لَسْتُ مِنْ بَلَدِكُمْ ، وَلا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ قانونُكُمْ . » غَيْرَ أَنَّهُمْ أَخَذوا يُواسُونَني في مُصابي وَطَلَبوا إِلَيَّ ٱلتَّحَلِّيَ بِٱلشَّجاعَةِ ، وَأَبْلَغوني أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ أَلْحَقَ بِزَوْجَتي لِأَنّي صِرْتُ – في نَظَرِهِمْ – واحِدًا مِنْهُمْ .

لَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ لَفُّوا ٱلحِبالَ حَوْلَ جِسْمي . وَحَمَلوني إِلى ٱلكَهْفِ . وَهُناكَ خَلَّصوني مِنَ ٱلقُيودِ ، وَأَرْغَموني عَلى ٱلنُّزولِ إِلى ٱلكَهْفِ بِاسْتِخْدامِ ٱلحِبالِ . وَسَدُّوا بابَهُ بِٱلصَّخْرَةِ ، فَلَمْ أَعُدْ أَرَى شَيْئًا داخِلَ ٱلكَهْفِ وَبَعْدَ قَليلٍ لاحَ لي شُعاعٌ ضَئيلٌ مِنَ ٱلنّورِ ، وَتَبَيَّنَ لي أَنَّهُمْ كانوا يَدْفِنونَ مَعَ ٱلمَوْتَى جَواهِرَهُمْ وَحُلِيَّهُمْ وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُمَيِّزَ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلحِبالِ ٱلَّتي كانَتْ تُسْتَعْمَلُ في إِنْزالِ مَنْ يُدْفَنونَ أَحْياءً .

فَجْأَةً سَمِعْتُ حَرَكَةً فِي ٱلْكَهْفِ ، وَرَأَيْتُ حَيَوانًا يُشْبِهُ ٱلثَّعْلَبَ . وَلَمّا حاوَلْتُ ٱلْإِمْساكَ بِهِ عَضَّ يَدي وَأَفْلَتَ مِنّي هارِبًا . وَدَعاني هٰذا ٱلْحادِثُ إِلى ٱلتَّفْكيرِ : « إِنَّ وُجودَ ٱلْحَيَواناتِ دَليلٌ عَلى وُجودِ فُتْحَةٍ تَدْخُلُ مِنْها إِلى ٱلْكَهْفِ . وَعَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ مِنْها دَليلي فِي ٱلْخُروجِ مِنْهُ . »

جُحْرُ ٱلثَّعْلَبِ

حاوَلْتُ أَنْ أَرْمِيَ حَبْلًا حَوْلَ أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْحَيَواناتِ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُفْلِحْ ؛ فَكَرَّرْتُ ٱلْمُحاوَلَةَ عَشَراتِ ٱلْمَرّاتِ . وَأَخيرًا رَمَيْتُ ٱلْحَبْلَ فَٱلْتَفَّ حَوْلَ أَحَدِها فَجَرى ، وَتَبِعْتُهُ وَٱلْحَبْلُ في يَدي ، إِلى نِهايَةِ ٱلْكَهْفِ ، حَتّى وَجَدْتُ فُتْحَةً يَسْتَطيعُ ثَعْلَبٌ أَنْ يَمُرَّ مِنْها ، وَلٰكِنْ تَعَذَّرَ عَلَيَّ ذٰلِكَ .

أَخَذْتُ في تَوْسيعِ ٱلْفُتْحَةِ ، وَٱسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ مِنّي وَقْتًا طَويلًا ، وَنَجَحْتُ فِي ٱلْخُروجِ حَيْثُ ٱلْهَواءُ ٱلطَّلْقُ وَٱلسَّماءُ ٱلصّافِيَةُ . وَوَجَدْتُ نَفْسي قَريبًا مِنَ ٱلْبَحْرِ أَسْفَلَ جُرُفٍ صَخْرِيٍّ عالٍ لا يُمْكِنُ تَسَلُّقُهُ صُعودًا أَوْ نُزولًا . ثُمَّ وَجَدْتُ ٱلْماءَ في أَحَدِ ٱلنُّهَيْراتِ ، وَشَجَرَةَ فاكِهَةٍ ، فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ ، وَجَلَسْتُ طَلَبًا لِلرّاحَةِ .

جَلَسْتُ أُفَكِّرُ : « عَلَيَّ بِٱلِانْتِظارِ إِلى حينِ قُدومِ سَفينَةٍ لا تَكونُ وِجْهَتُها ٱلْمَدينَةَ ٱلَّتي كُنْتُ فيها ، ما دامَ ٱلطَّعامُ وَٱلْماءُ مُتَوَفِّرَيْنِ . أَيَحْسُنُ بي أَنْ أَعودَ إِلى كَهْفِ ٱلْمَوْتى لِأُخْرِجَ بَعْضَ ٱلْجَواهِرِ ؟ وَلٰكِنْ إِذا عُدْتُ فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَدِلَّ عَلى طَريقِ ٱلْخُروجِ ؟ »

الجَواهِرُ وَٱلسَّفينَةُ

تَذَكَّرْتُ ٱلْحِبالَ فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَوْ صَنَعْتُ حَبْلًا طَويلًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْحِبالِ ٱلْقَصيرَةِ ، فَسَيُساعِدُني فِي ٱلدُّخولِ إِلى ٱلْكَهْفِ وَٱلْخُروجِ مِنْهُ . » وَعَلى ٱلْفَوْرِ صَنَعْتُ ٱلْحَبْلَ ، وَدَخَلْتُ ٱلْكَهْفَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَأَخْرَجْتُ آلافَ ٱلْجَواهِرِ وَوَضَعْتُها في أَكْياسٍ صَنَعْتُها مِنَ ٱلْقُماشِ ٱلَّذي كانَ مَلْفوفًا حَوْلَ أَجْسادِ ٱلْمَوْتى . وَبَقيتُ فِي ٱنْتِظارِ سَفينَةٍ تَمُرُّ .

وَجاءَ ٱلْفَرَجُ ، عِنْدَما رَسَتْ سَفينَةٌ لِتَتَزَوَّدَ بِٱلْماءِ . وَرَوَيْتُ لِلرُّبّانِ بَعْضَ ما حَدَثَ لي ، دونَ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِقِصَّتي فِي ٱلْمَدينَةِ خَشْيَةَ أَنْ يَكونَ بَيْنَ ٱلرُّكّابِ أَحَدٌ مِنْ سُكّانِها . وَقَدَّمْتُ بَعْضَ ٱلْجَواهِرِ هَدِيَّةً إِلى ٱلرُّبّانِ ، فَٱعْتَذَرَ عَنْ عَدَمِ قَبولِها قائِلًا : « إِنَّنا نَحْنُ أَبْناءَ ٱلْبَصْرَةِ إِذا وَجَدْنا مَنْ قَذَفَتْ بِهِ ٱلرّيحُ أَوِ ٱلْبَحْرُ عَلى أَيَّةِ جَزيرَةٍ ، حَمَلْناهُ عَلى سُفُنِنا وَقَدَّمْنا لَهُ ٱلطَّعامَ وَٱلْماءَ وَٱلْكِساءَ . وَلا نَحْمِلُ عَلَيْهِ بِتَوْصيلِهِ إِلى بَلَدِهِ . وَلَيْسَ مِنْ شِيَمِنا أَنْ نَتَقاضى أَجْرًا ، أَيًّا كانَ ، مِنْ أَحَدٍ . وَكُلُّ ما نَعْمَلُهُ لَيْسَ إِلّا في سَبيلِ ٱللهِ . »

نِهايَةُ ٱلرِّحْلَةِ ٱلرّابِعَةِ

بَلَغَتِ ٱلسَّفينَةُ مِياهَ ٱلْبَصْرَةِ فِي ٱلْوَقْتِ ٱلْمُحَدَّدِ لَها ، فَغادَرْتُها إِلى بَغْدادَ ، وَقَدْ فَرِحَ بي أَهْلي وَأَصْدِقائي . وَتَصَدَّقْتُ بِٱلْمالِ وَٱلثِّيابِ وَٱلطَّعامِ عَلى ٱلْفُقَراءِ ، وَقَدَّمْتُ ٱلْعَوْنَ لِلْمُحْتاجينَ .

عُدْتُ وَقُلْتُ : « لَنْ أُغادِرَ مَدينَتي بَعْدَ ٱلآنَ ، وَسَتَكونُ هٰذِهِ آخِرَ رِحْلَةٍ لي في دُنْيايَ . »

وَلٰكِنّي نَقَضْتُ ٱلعَهْدَ ، وَلَمْ أَلْتَزِمْ بِما وَعَدْتُ ، وَلي حَديثٌ مَعَكُمْ أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، غَدًا إِنْ شاءَ ٱللهُ .

الرِّحْلَةُ ٱلخامِسَةُ

تَذَكَّرْتُ ، في حينِهِ ، مَحاسِنَ رِحْلاتي ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ مَساوِئَها .

فَفي يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّامِ ، رَأَيْتُ جَماعَةً يَبْنونَ سَفينَةً كَبيرَةً ، فَاشْتَرَيْتُها مِنْهُمْ ، وَأَبْحَرْتُ عَلَيْها ، وَمَعي بَعْضُ ٱلتُّجّارِ ، في رِحْلَتي ٱلخامِسَةِ . وَقَدْ تَنَقَّلْنا مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ إِلى أُخْرى نَبيعُ وَنَشْتَري وَنُمَتِّعُ أَعْيُنَنا بِجَمالِ ٱلطَّبيعَةِ .

وَفي أَحَدِ ٱلأَيّامِ ، رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ عَلى جَزيرَةٍ كَبيرَةٍ ، لَمْ نُشاهِدْ فيها إِنْسانًا أَوْ حَيَوانًا أَوْ نَباتًا . وَنَزَلَ ٱلتُّجّارُ إِلى ٱليابِسَةِ لِيَتَجَوَّلوا في ٱلجَزيرَةِ وَبَيْنَما هُمْ يَتَجَوَّلونَ ، تَوَقَّفوا عِنْدَ شَيْءٍ ضَخْمٍ ، أَبْيَضِ ٱللَّوْنِ ، شَديدِ ٱلشَّبَهِ بِٱلقُبَّةِ . فَصَرَخْتُ فيهِمْ أَلّا يَمَسّوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِأَنَّهُ بَيْضَةُ رُخٍّ . وَنَصَحْتُهُمْ بِٱلِابْتِعادِ عَنْها قَبْلَ فَواتِ ٱلأَوانِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعوا إِلى نُصْحي ، بَلْ أَخَذوا يُحْدِثونَ بِها ثُقْبًا ، لِيَعْرِفوا ما بِداخِلِها ؛ وَإِذا بِصَوْتٍ كَالبُكاءِ يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِ ٱلبَيْضَةِ . كانَ فَرْخُ ٱلرُّخِّ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ ٱلأَخيرَةَ . وَمِنْ أَعالي ٱلجَوِّ سُمِعَ صُراخٌ رَدًّا عَلى صُراخِ فَرْخِ ٱلرُّخِّ . وَٱنْقَلَبَ ٱلنَّهارُ إِلى لَيْلٍ ، حينَما حامَ في ٱلجَوِّ رُخٌّ ضَخْمٌ وَرَفيقَتُهُ ، فَتَوَقَّعْتُ هَلاكَنا جَميعًا ، وَلٰكِنَّهُما طارا بَعيدًا . وَفي ٱلحالِ ، طَلَبْتُ مِنَ ٱلتُّجّارِ ٱلعَوْدَةَ بِأَقْصى سُرْعَةٍ ، لِنُبْحِرَ بَعيدًا عَنِ ٱلجَزيرَةِ وَنَنْجُوَ بِأَنْفُسِنا .

سفينتي تتحطم

استمع التجار إلى نصيحتي ، وأقلعت بنا السفينة إلى عرض البحر وقد خطر ببالي أن أسأل نفسي : « هل سنفلت منهما ؟ » وقبل أن يتم سؤالي ، شاهدنا الرخين يعودان ، يحمل الواحد منهما صخرة كبيرة بحجم البيت وما هي إلا لحظات ، حتى أخذ رخ يحوم فوقنا ، ثم ألقى بالصخرة علينا ، ولكن الربان استطاع أن يتفاداها ، فسقطت في البحر ، وارتفعت مياهه ، وكأنها جبال ، وأخذت تقذف بالسفينة هنا وهناك .

لم يستطع الربان أن يتفادى الصخرة الثانية التي سقطت على السفينة ، فكتبت السطر الأخير من حياة سفينتي الجديدة . وقد لقي معظم التجار والبحارة حتفهم . وكل ما أذكره أني وجدت نفسي في صراع مع البحر ، لم ينقذني منه إلا لوح خشبي من حطام السفينة كان طافيا على مقربة مني ، فتشبثت به

كان لهذا اللوح الخشبي الفضل في إنقاذي ، وخاصة عندما دفعتني الريح والأمواج إلى شاطئ جزيرة بغتة بعد أربعة أيام بلياليها . وحمدت الله عندما وجدت جدول ماء عذب ، وأشجار فاكهة . وأسرعت أقطف الثمار وآكلها ، وأعب من ماء النهر .

شيخ البحر

سرت أبحث في الجزيرة ، لعلي أجد بشرا يقيمون فيها . ولم يطل بي السير ، إذ رأيت عجوزا بدا لي مريضا واهنا . عندها قلت لنفسي : « ترى أيكون هذا العجوز بحارا تحطمت سفينته ، وقذفت به الأمواج إلى هذه الجزيرة ؟ »

كان العجوز يجلس على مقربة من جدول الماء . ولما اقتربت منه ، حييته ولكنه لم ينطق بكلمة ، وكلمته ثانية . فالتزم الصمت ، واكتفى بتحريك يده ناحية جدول الماء . وقد ظننت أنه يريدني أن أعبر به الجدول إلى الضفة الأخرى ، فحملته على ظهري ، استعدادا لاجتياز الماء . لكنه فجأة أحاط عنقي بساقيه اللتين كانتا – على الرغم من هزالهما – صلبتين قويتين .

ولما حاولت إنزاله ، ركلني بقدمه ، وشد على عنقي بيديه وساقيه حتى كاد يعصرها ، وارتسم شبح الموت أمام عيني . وقد بقيت على تلك الحال أياما . وكنت في الليل أنام على الأرض وساقاه حول عنقي . وفي النهار ما كنت أتناول فاكهة أو أشرب ماء إلا حسب مشيئته . ولم يكلمني قط ، بل كان يعمد إلى ركلي بقدمه لأفعل ما يريده مني .

وذات يوم ، وجدت فاكهة مخدرة كنت قد سمعت عنها في بعض أسفاري . فتناولت ثمرة وتظاهرت بأني آكل منها . ثم رحت أتمايل فرحا ، وأقول : « ما أحلى هذه الثمرة ! آه لو آكل منها الكثير ! » ولما سمعني

ٱلعجوزُ ، رَكَلَني بِقَدَمِهِ ، وَأشارَ إلى ٱلفاكِهةِ ، فَأَعْطَيْتُهُ مِنْها . وَلَمّا ستحسن مذاقها ، أخذ يأكل مِنْها بِشَرَهٍ إلى أَنْ تَراخَتْ ساقاهُ مِنْ حول عُنُقي ، وَفقد وَعْيَهُ . عِنْدَئِذٍ أَلقَيْتُ بِهِ أرضًا ، وَدَققْتُ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ .

سِرْتُ إلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ حَيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً ، نَزَلَ بَعْضُ بَحّارَتِها لِيَتزَوَّدُوا بالماءِ ٱلعَذْبِ . وَلَمّا رَوَيْتُ لَهُمْ ما حَدثَ لي ، قالوا : « إنَّ ٱلعجوزَ لذي رأيْتَهُ ، هُوَ شَيْخُ ٱلبَحْرِ وما مِنْ أَحَدٍ قَبْلَكَ . لَفَّ ٱلشَّيْخُ ساقَيْهِ حَوْلَ عُنُقِهِ ، إلّا ماتَ . لَقَدْ قَضى على كَثيرٍ مِنَ ٱلبَحّارةِ بِنَفْسِ ٱلطَّريقةِ . وَفي كُلِّ مَرَّةٍ نَقْصِدُ ٱلجزيرةَ لا بُدَّ أَنْ يكونَ مَعَنا تِسْعَةٌ أَوْ عَشَرَةٌ مِنَ ٱلبَحّارةِ لِخَوْفِنا مِنْ شَيْخِ ٱلبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُمْ : « لِماذا إذًا تَجيئونَ إلى هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ؟ »

أجابوني : « نَجيءُ لِنَجْمَعَ ثِمارَ جَوْزِ ٱلهِنْدِ . تَعالَ مَعَنا وَمَعَكَ أَكْياسٌ كَبيرةٌ لِجَوْزِ ٱلهِنْدِ ، وَكيسٌ صَغيرٌ مَمْلوءٌ بِٱلحِجارةِ ٱلصَّغيرةِ . »

القُرودُ وَجَوْزُ ٱلهِنْدِ

أَخَذْتُ مَعي ما طَلَبوهُ مِنّي ، وَسِرْنا إلى غابةٍ مِنْ أَشْجارِ جَوْزِ ٱلهِنْدِ ، وَهِيَ أَشْجارٌ شَديدةُ ٱلإرْتِفاعِ ، مَلْساءُ ٱلجُذوعِ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ تَسَلُّقَها ، وَجَميعُ ثِمارِها في أَعْلاها حَيْثُ تَرى ٱلقُرودَ .

بَدَأْنا نَرْجُمُ ٱلقُرودَ بِٱلحِجارةِ ، فَٱغْتاظَتْ وَأَخَذَتْ تَقْذِفُنا بِثِمارِ جَوْزِ



الهند . وتجمّعتْ لدينا كمّيّةٌ كبيرةٌ في وقتٍ ليس بطويل . وأخذنا ننزعُ قشورَها ، ونملأُ بالثّمارِ أكياسنا . وعندما أخذتِ السّفينةُ حمولتَها ، أبحرَتْ بنا إلى جُزُرِ القُمُر والجُزُرِ القريبةِ منها ، حيْثُ بعْنا ما معَنا بثمنٍ مرتفعٍ ، واشترَيْنا بالثّمنِ أخشابًا وأشياءَ أخرى غيرَها حمَلْناها إلى البصْرة .

وقدْ عُدْتُ منْ رحْلتي هذه ، إلى وطني ، أكثَرَ ثراءً ممّا كُنْتُ قبْل قيامي بهذه الرّحْلة . وفي بغداد ، تصدّقْتُ على الفقراء والمُحْتاجين وقطعْتُ على نفْسي عهْدًا ألّا أعودَ إلى البحْرِ . ولكنّي عُدْتُ فأخلفْتُ الوعْدَ . وسأحدّثُكُم غدًا ، إنْ شاءَ اللهُ ، عمّا فعلْتُ .

الرّحْلةُ السّادسةُ

لَمْ تكُنْ لي رَغْبةٌ في مُعاوَدةِ رُكوبِ البَحْرِ ، ولكنّ رغْبتي الشّديدة في مُشاهدةِ بعْضِ بُلْدانِ الهِنْدِ ، حمَلَتْني على عدَمِ الالْتزامِ بما وعَدْتُ . ولمْ تمْضِ إلّا أيّامٌ ، حتّى جهّزْتُ نفْسي بِسَفَرٍ ، فاشْتَرَيْتُ حاجتي منَ البضائعِ ، واصْطَحَبْتُ بعْضَ الخدَمِ لِمُساعدتي في رِحْلتي . وانْطلقتِ القافلةُ بنا ، وزُرْنا كُبْرَياتِ المُدُن ، حيْثُ كُنْتُ أبيعُ فيها وأشْتري . وواصلْنا سيْرنا حتّى بَلَغْنا مَصَبَّ نهْرِ الغانْجِ العظيمِ ، حيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً توشِكُ على القيامِ برحْلةٍ طويلةٍ إلى الجَنوبِ والشّرْق .

كانتْ تلْكَ الرّحْلةُ الصّعبةُ مشْؤومةً . فقدْ هبّتْ علينا ريحٌ عاصفةٌ ، فانْحرَفَتِ السّفينةُ عنْ مسارِها وتُهْنا في عُرْضِ البحْر ، وأصْبَحْنا تحْت رَحْمةِ الرّيح ، تَسوقُنا أمامها ، كما يسوقُ الرّاعي قطيعَ الغنم ، وبأقْصى سُرْعةٍ .

ولمْ يتمالكِ الرُّبّانُ نفْسهُ حينَ أخذ يصْرُخُ قائلًا : « إنّنا ميّتون لا محالة . » ثُمّ انْتزعَ عمامتهُ منْ فوْقِ رأْسِه ، وألْقى بها أرْضًا ، وأخذ يضْرِبُ رأسهُ بكلْتا يدَيْه ، ولسانُهُ لا ينْفكُّ يقولُ : « إنّها نهايَتُنا ! هلْ تَروْن ذلكَ الجبلَ الشّاهق ؟ إنّ فيه كهْفًا يبْتلعُ مياه البحْرِ بما فيها منْ سُفُنٍ . ولمْ يقْدرْ إنْسانٌ – حتّى الآنَ – أنْ يخْرجَ منهُ حيًّا . »

الإنسياق إلى الكهف

حاول البحارة أن يخرجوا بالسفينة من بين الأمواج المتلاطمة ؛ ولكنهم خفقوا . وسرعان ما أخذت سفينتنا تقترب من الكهف ، ومياه البحر تتدفق في جوفه ، وبسرعة متزايدة . وما هي إلا دقائق معدودة ، حتى ارتطمت السفينة بجدرانه الصخرية ، وتحطمت تماما . وسود كل شيء حولنا .

أحدث أحدثت نفسي قائلا : « إما أني قد مت فعلا أو أنني مشرف على الموت . »

كنت في ظلام دامس ، لا أرى ما يدور حولي ، لأن كل شيء كان أشد سوادا من الليل البهيم . لكني كنت أسمع صوت ماء يجري جريا سريعا ، وأسمع رياحا تهب . وها أنا أتحرك فوق جسم صلب ، وليس في الماء . إذا أين أنا ؟ لقد أصبحت الدنيا ظلاما في ظلام ، وطالت رحلتي في ذلك المكان السفلي الأسود . واستسلمت لنوم عميق .

سرنديب

لم أستيقظ إلا على أصوات تصيح وتصرخ حولي . ولما فتحت عيني ، وجدت نفسي راقدا على ظهري فوق لوح من الخشب ، عند ضفة نهر عظيم ، وحولي جمع من الناس ينظرون إلي بدهشة ، وكانوا هم مصدر الصراخ الذي أيقظني .

سألت الواقفين : « أين أنا ؟ » إلا أنهم لم يجيبوا عن سؤالي لجهلهم اللغة العربية . وفي الحال أرسلوا يطلبون رجلا يعرف العربية بعض الشيء . وحال وصوله أنبأني بأني في بلاد ملك سرنديب (سريلانكا) فحمدت الله على أني في بلد ملك عظيم ، سمعت عنه وعن بلده الشيء الكثير .

أضاف الرجل قائلا : « نجيء إلى هذا المكان لتحويل قنوات الري من هذا النهر إلى مزارعنا . وينبع النهر من سلسلة الجبال تلك . وحتى هذه اللحظة لم يتسن لأي إنسان من هنا أن يصعد تلك الجبال ، كما لم يجئنا أحد من قمم تلك الجبال . والآن ، قل لي : كيف وصلت إلى هذا المكان ؟ »

إلى الملك

رويت له قصة رحلتي السادسة ، وقام هو بترجمتها إلى الحاضرين ، وكانت عيونهم مثبتة علي . وما إن وصل إلى نهايتها ، حتى علا صراخهم ، ورددوا كلمات لم أفهمها ، ترجمها لي الرجل كالتالي : « عليك أن تقص حكايتك على الملك ، وسنأخذك إليه في الحال . » ثم قدموا لي الطعام والماء ، وأركبوني جوادا . وبعد مسيرة ثلاثة أيام ، بلغنا العاصمة . وقد استقبلني الملك في القاعة الملكية ، ورحب بي ، وأصغى باهتمام إلى قصتي . ثم أمر الخدم بتخصيص حجرة لي تجاور القاعة الملكية ، وتزويدي بأفضل الثياب ، وتقديم أشهى المأكولات ، وتوفير ما أحتاج

إليهِ . وكانَ يستدعيني يومًا بعدَ يومٍ ، لِيستمِعَ إلى أحداثِ رِحلاتي السِّتِّ ، وما رافقها مِنْ أهوالٍ ومَخاطِرَ . ولَمْ يغِبْ عنْ بالِهِ أنْ يسألَني عنْ بغدادَ ، فحدَّثتُهُ عنها بإفاضةٍ .

رِسالةٌ مِنَ المَلِكِ

ذاتَ يومٍ ، علِمتُ بوصولِ سفينةٍ إلى العاصِمةِ ، وهيَ في طريقِها إلى البصرةِ . فأذِنَ ليَ المَلِكُ أنْ أركبَها . ومَنحني الهدايا الثَّمينةَ مِنْ ذهبٍ وماسٍ وجواهِرَ وغيرِها ، وسلَّمني رِسالةً مَلكيَّةً وهدايا ثمينةً إلى أميرِ المُؤمنينَ ، الخليفةِ هارونَ الرَّشيدِ . وكانَ عُنوانُ الرِّسالةِ المَلكيَّةِ :

« مِنْ مَلِكِ سرَنديب ، ومَلِكِ جُزُرِ الهندِ الشَّرقيَّةِ ، والمَلِكِ الأكبرِ ، إلى أخيهِ الخليفةِ هارونَ الرَّشيدِ العظيمِ . »

وكانتْ هداياهُ إلى الخليفةِ مِنَ الذَّهبِ والجواهِرِ ، وأشياءَ أُخرى فائقةِ الجمالِ ، جيءَ بها مِنْ غاباتِ سرَنديب ومَزارِعِها ، لَمْ ترَ العَيْنُ مثيلًا لها في أسواقِ بغدادَ .

وكانتْ رِحلَتي إلى البصرةِ مُمتِعةً ، خاصَّةً وأنا أحمِلُ رِسالةً مَلكيَّةً وهدايا إلى الخليفةِ هارونَ الرَّشيدِ ، الَّذي أحسنَ استقبالي ، واستمَعَ إلى حِكايتي ، وتلطَّفَ في الحديثِ معي .

الرِّحلةُ السَّابِعةُ

ما كُنتُ أنوي القِيامَ بأيَّةِ رِحلةٍ أُخرى ، أيُّها الأصدِقاءُ . ولا تَنسَوْا أنَّ تقدُّمَ السِّنِّ يدعوني إلى قضاءِ ما تبقَّى مِنَ العُمرِ في وطَني ، بيْنَ أهلي وأحبابي ، والعَيْشِ في بيتي وبيْنَ حدائِقي في مُنتهى السَّعادةِ .

وفي يومٍ مِنَ الأيَّامِ ، وأنا معَ أصدِقائي ، بعثَ إليَّ الخليفةُ هارونُ الرَّشيدُ يستدعيني . ولمَّا مَثَلْتُ أمامَهُ ، قالَ لي : « أُريدُكَ أنْ تحمِلَ جوابي وهداياي إلى مَلِكِ سرَنديب . » فأجبتُهُ : « لكَ منِّي السَّمعُ والطَّاعةُ ، يا أميرَ المؤمنينَ ! وسأمتثِلُ إلى أمرِكَ في الحالِ . »

انصرفَ رِجالُ الخليفةِ إلى البحثِ عنْ أحسنِ سفينةٍ ، وأعدُّوها للسَّفرِ . وعندما طابَتِ الرِّيحُ ، أبحرتُ حامِلًا جوابَ الخليفةِ وأنفسَ الهدايا الَّتي يجدُها المرءُ في أسواقِ بغدادَ والإسكندريَّةِ والقاهِرةِ ومُدُنِ المغرِبِ .

ولدى وصولي إلى سرَنديب ، استقبلني المَلِكُ أحسنَ استقبالٍ ، وفرِحَ بلقائي أشدَّ الفرحِ . وأعربَ لي عنْ عظيمِ سعادتِهِ بخِطابِ الخليفةِ وهداياهُ الَّتي لاقتْ حُسنَ القَبولِ لدَيْهِ . وكُنتُ موْضِعَ رِعايتِهِ بما غمرَني مِنْ فيْضِ كريمِ أخلاقِهِ . واستأذنتُهُ للسَّفرِ ، فحمَّلني الكثيرَ مِنَ الهدايا ، وفعلَ مِثلَ ذلكَ رِجالُ مملكتِهِ .



القراصنة

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِنْ إِبْحارِنا ، خَرَجَ عَلَيْنا مِئاتُ القَراصِنَةِ في بِضْعَةِ زَوارِقَ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى سَفينَتِنا ، وَاتَّجَهوا بِها إِلى إِحْدى الجُزُرِ ، وَباعونا إِلى تُجّارِها . وَكُنْتُ مِنْ نَصيبِ تاجِرٍ طَيِّبٍ أَحْسَنَ مُعامَلَتي .

سَأَلَني يَوْمًا : « هَلْ تُحْسِنُ الرِّمايَةَ ؟ » وَلَمّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بِالإِيجابِ ، اسْتَأْنَفَ كَلامَهُ قائِلًا : « حَسَنًا ! فَالنِّظامُ المُتَّبَعُ في هٰذا البَلَدِ يُلْزِمُ كُلَّ أَسيرٍ ، بَعْدَ بَيْعِهِ ، بِأَنْ يَقومَ بِصَيْدِ الأَفْيالِ . وَعِنْدَ بَيْعِ الأَنْيابِ ، يَتَقاضى القَراصِنَةُ جُزْءًا مِنْ أَثْمانِها . وَسَآخُذُكَ اللَّيْلَةَ إِلى الغابَةِ لِتَبْدَأَ عَمَلَكَ هُناكَ . »

صَيْدُ الأَفْيالِ

في الغابَةِ ، طَلَبَ إِلَيَّ صُعودَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « عَلَيْكَ بِالاِنْتِظارِ إِلى حينِ اقْتِرابِ الأَفْيالِ ، فَتُطْلِقُ بَعْدَها سَهْمَكَ عَلى أَحَدِها . وَسَأَجيئُكَ غَدًا صَباحًا لِأَعودَ بِكَ وَبِالفيلِ إِلى المَدينَةِ . »

وَانْتَظَرْتُ فَوْقَ الشَّجَرَةِ طَويلًا ، إِلى أَنِ اقْتَرَبَ فيلٌ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ سَهْمًا فَقَتَلْتُهُ . وَفي الصَّباحِ جاءَني التّاجِرُ ، وَسُرَّ كَثيرًا عِنْدَما رَآني وَرَأى جُثَّةَ الفيلِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ سُرورِهِ بِقَوْلِهِ : « يَسُرُّني أَنَّكَ مِنْ خِيرَةِ الرُّماةِ ، وَقَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِقَتْلِكَ إِيّاهُ ، فَلَوْ لَمْ تَقْتُلْهُ ، لَقَتَلَكَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، لَقيتُ رَجُلَيْنِ أَسَرَهُما القَراصِنَةُ مِنْ سُفُنٍ أُخْرى . وَكانَ عَمَلُهُما مِثْلَ عَمَلي وَهُوَ صَيْدُ الأَفْيالِ . وَدارَ الحَديثُ بَيْنَنا ، وَمِمّا

قالَا : « إِنَّنا لا نَطْمَعُ في ٱلعَيْشِ طَوِيلًا ، حَتَّى وَلَوْ بَرَعَ ٱلواحِدُ مِنَّا في ٱلصَّيْدِ ، لِأَنَّ ٱلأَفْيالَ لا يُؤْمَنُ جانِبُها . وَٱلمَعْرُوفُ عَنِ ٱلفِيلِ أَنَّهُ حَيَوانٌ ذَكِيٌّ ؛ وَلا غَرابَةَ أَنْ تَثْأَرَ ٱلأَفْيالُ لِقَتْلاها مِنْ قاتِلِيها . »

فَكَّرْتُ فيما سَمِعْتُهُ مِنْهُما ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : « يَنْبَغي أَلَّا أَصْعَدَ إِلى ٱلشَّجَرَةِ مَرَّتَيْنِ ؛ كَما يَجِبُ أَنْ أَتَحاشَى إِطْلاقَ ٱلسِّهامِ عَلى قَطيعٍ مِنْها ، وَعَلَيَّ أَلَّا أُخْطِئَ ٱلهَدَفَ وَأَنْ أُصيبَ مِنَ ٱلفِيلِ مَقْتَلًا . »

مَضى عَلَيَّ زَمَنٌ طَويلٌ وَأَنا أَصْطادُ فيلًا في كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكانَ سُرورُ ٱلتّاجِرِ كَبيرًا ، عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّكَ أَفْضَلُ صَيّادٍ عِنْدي . وَٱعْتِبارًا مِنْ هٰذا ٱليَوْمِ سَيَكونُ نَصيبُكَ نابًا مِنْ كُلِّ عَشَرَةٍ . وَإِذا تَجَمَّعَ لَدَيْكَ مِئَةُ نابٍ ، أَطْلَقْتُ سَراحَكَ لِتَعودَ إِلى بَلَدِكَ . »

وَعِنْدَما بَلَغَ ما لَدَيَّ قَرابَةَ مِئَةِ نابٍ ، كُنْتُ عَلى ٱلشَّجَرَةِ وَأَطْلَقْتُ سَهْمًا عَلى فيلٍ ، وَلٰكِنَّني لَمْ أُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا .

وَفي ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ ، ٱمْتَلَأَتِ ٱلغابَةُ بِضَجيجِ مِئاتِ ٱلأَفْيالِ ٱلَّتي كانَتْ تَبْحَثُ عَنّي . وَسُرْعانَ ما أَحاطَتْ بِشَجَرَتي ، فَصَعِدْتُ إِلى أَعْلاها . ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ قَليلًا قَليلًا ، وَمَعَ هٰذا لَمْ أُحاوِلْ إِطْلاقَ سِهامي عَلَيْها . وَأَخيرًا لَفَّتْ خَراطيمَها حَوْلَ ٱلشَّجَرَةِ وَٱقْتَلَعَتْها مِنْ جُذورِها ، وَحَمَلَني أَكْبَرُها عَلى ظَهْرِهِ . وَسارَتْ قافِلَةُ ٱلأَفْيالِ مِنْ وادٍ إِلى وادٍ ، وَبِشَكْلٍ عَسْكَرِيٍّ بِحَيْثُ كانَ ٱلواحِدُ وَراءَ ٱلآخَرِ .

وادي ٱلأَفْيالِ

وَفي وادٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلجِبالِ ، تَوَقَّفَتِ ٱلأَفْيالُ عَنِ ٱلسَّيْرِ . عِنْدَها تَذَكَّرْتُ ما قَدْ سَمِعْتُهُ في زَماني بِأَنَّ جُموعَ ٱلأَفْيالِ تَذْهَبُ إِلى مَكانٍ خاصٍّ وَتَموتُ فيهِ بِشَكْلٍ جَماعِيٍّ . وَكُنْتُ لا أُصَدِّقُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ ، ها قَدْ تَحَقَّقَ قَوْلُهُمْ . فَٱلمِئاتُ بَلِ ٱلآلافُ مِنَ ٱلأَفْيالِ قَدْ ماتَتْ هُنا . وَهاهِيَ ذي جُثَثُها تُغَطّي ٱلأَرْضَ .

أَحاطَتْ بِيَ ٱلأَفْيالُ وَعُيونُها جَميعًا مُصَوَّبَةٌ نَحْوي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَمَسَّني أَحَدُها بِسوءٍ . وَكانَتْ عُيونُها هِيَ ٱلَّتي تُحَدِّثُني ، وَلَوْ كانَتْ لَها ٱلمَقْدِرَةُ على ٱلكَلامِ لَقالَتْ لي : « لِمَ تُطْلِقونَ ٱلسِّهامَ عَلَيْنا مِنْ أَجْلِ أَنْيابِنا ؟ أُنْظُرْ حَوْلَكَ . ماذا تَرى ؟ طَبْعًا ، تَرى ٱلأَنْيابَ ، وَهٰذِهِ ٱلأَنْيابُ لَسْنا بِحاجَةٍ إِلَيْها . هَيّا خُذْ مِنْها ما تَشاءُ وَقُلْ لِأَهْلِ ٱلمَدينَةِ أَنْ يَكُفّوا عَنْ قَتْلِنا . »

وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَها تَفْهَمُ أَنّي مُدْرِكٌ قَصْدَها . قامَتِ ٱلأَفْيالُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِإِرْشادي إِلى طَريقِ ٱلعَوْدَةِ إِلى ٱلمَدينَةِ . وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي ٱصْطَحَبْتُ ٱلتّاجِرَ إِلى مَقْبَرَةِ ٱلأَفْيالِ . وَهُناكَ نَظَرَ حَوْلَهُ وَنَظَرَ ، ثُمَّ قالَ لي : « في هٰذِهِ ٱلمَقْبَرَةِ مِنَ ٱلأَنْيابِ ما يَشْغَلُ تُجّارَ ٱلمَدينَةِ مِئَةَ سَنَةٍ . » وَتَوَقَّفَ سُكّانُ ٱلجَزيرَةِ ، بَعْدَئِذٍ ، عَنْ صَيْدِ ٱلأَفْيالِ .

وَقَدْ مَلَأُوا لي سَفينَةً بِأَنْيابِ ٱلأَفْيالِ كَيْ أَبيعَها في ٱلبَصْرَةِ وَبَغْدادَ ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ إِلى وَطَني ، وَكانَتْ هِيَ ٱلرِّحْلَةَ ٱلأَخيرَةَ مِنْ رِحْلاتي .

مُغامَرات
السِّنْدِبادِ البَحْري

المغامرات المثيرة

L 1500



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 211



عرب كوميكس
www.arabcomics.net